إبراهيم نصر الله

مجرّد 2 فقط

رواية



إبراهيم نصر الله

مجرّد 2 فقط

رواية

مجرّد 2 فقط / رواية عربيّة
إبراهيم نصر الله
الطبعة العربيّة الثانية ، ١٩٩٩

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي :موكيّالي ،
هاتفاكس : ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
محمد حجي ®
صورة الغلاف :
إبراهيم نصر الله
الصفّ الضوئي :
دار الشروق ، عمّان

أسامينا ؟!!

شو تعبوا أهالينا تلاقوهـا
وشـو افتكـروا فينـا
الأسـامـي كـلام
شـو خصّ الكـلام ؟
عِنيْنا هِـنّ أسـامينـا

شعر : جوزيف حرب

من أغنيات فيروز

لم يكن هناك أحد حين وصلنا، أنا والآخر، لم يكن هناك أحد ينتظرنا حين وصلنا، ولم يكن هناك أحد ينتظر أحداً حين وصل الجميع. كنا سنحتفل، أما الآخرون، فلا، كانت خلفهم الحفلة، وكانوا هاربين من موت ما، سمعنا عنه، رأيناه، لكننا لم نعرفه الآن. عرفناه دائماً، هم، هم عرفوه الآن أكثر منا لأن كثيرين منهم ماتوا، أما نحن فلم يمت منا أحد هذه المرة. نساء وأطفال لا أكثر، ولم يكن ثمة رجال.

.. كانت جوازات سفرهم في أيديهم، مغبرة من دروب الصحراء، ومسودّة من سحب النفط المشتعلة، وكانوا يتلفتون خلفهم برعب، الأطفال بعيونهم الواسعة، بعيونهم التي اتسعت، انشغلوا بالحقائب التي تدور على حزام النقل في المطار، وفرحوا، لم أصدق أننا نستطيع النسيان إلى هذا الحد، قلت: معجزة، ولم تصل البراءة بأحدهم أن يصرخ: أريد أبي..

غبار رملي مطفأ يتزاحم في مساماتهم، وآثار مبيت في العراء تقصف ملامحهم، وتبدد أعمارهم الحقيقية، ولكنهم انشغلوا، يشدون الحقائب من آذانها.

* * *

الأستاذ، لم يكن يفعل ذلك، كان يضع حصوة صغيرة تحت

شحمة آذننا، ثم يضغط، يضع قلماً بين الأصـابع، ثم يضغط، يمسكنـا من جماجمنا ثم يضغط.

قلت لـلآخر: كيف كبـرنـا مـع كـل هـذا الضغط، وكيف أصبحتُ طويلاً..

قـال: لا أدري، أنتَ الطويـل.. إذن أنت الذي عليـه أن يجيب.ولم أجب.

* * *

وقعت الحقائب، تَكومت إلى جانبي الحزام، الحـزام الذي واصـل دورانه، لم يَشْكُ أحد، حتى أنا والآخـر، النساء راقبن أطفـالهن.. أطفال غيرهن، وربما أنا والآخر، ولم يكن فيهن قوة ليسألن: من أين أتى هذان اللذان لا يجلل وجهيهما الرمل.. وكن مجللات بالسواد.

قلت للآخر: من أين يأتي السواد.

قال: اخلط الألوانَ كلّها في وعاء واحد.. يكون السواد.

* * *

ارتفع عمودُ الدخان عالياً، وحين انقشع لم يكن هنالـك بيت، كان الفحم، القذيفة صحَتْ مبكرة، صَفَّرتْ في قوس مسارهـا المارِّ من تحت عنق الفجر، الفجر المُوزَّع في الغباش، الفجر الذي يحاول استلال لـونه من حلكـة الساعـة الأخيرة من الليـل، ليضيء يومـا، كان مؤهـلاً منـذ أسابيع لهذا الإنفجار.

أبي قال: قنبلة فسفورية..

ولم أقل له: كيف عرفت.

كـان البيت المجـاور قـد أصبـح فحمـا، ولم يكن هنـاك فسحـة للأسئلة، حين شدَّ الصغار، وأمي من تحت أغطيتهم، ورحنـا نتجمع في الغرفة الثانية، الغرفة التي يحمي واجهتها المطبخ.

سقطت القذيفة التالية.. وكنا خط النار، ورحنا نشدّ أيدي بعضنا، وتزاحمنا في الباب.

* * *

لم يكن هناك أحد.. في الصالة الضيقة، التي لم تكن أكثرَ من غرفٍ تؤدي إلى غرف.. إلى لونٍ صحراوي لامع مُتَّسخ.. وإلى سقوف ذات مراوحَ عملاقة تجرش الكميةَ القليلة من الهواء التي كانت هناك..

ولم يكن هناك أحد في انتظارنا.

قالوا لنا: أنتما مدعوان.

وتأخرت الدعوة، لكنها وصلت، ولم يصل أي منهم ليكون في إستقبالنا.

اندفع الصفُّ طويلًا، صفّ من نساء بين أرجلهن يِمور عشراتُ الأطفال، كلهم في عمر واحد، كأنهم «فعلوها» كلّهم، في ليلة واحدة. لِمَ لا..

قلت للآخر..، ألا يموتونَ عادةً في ليلة واحدة.

كان هناك رجال، بقامات عالية وأخرى منحنية، شعور ذقونهم نافرة، حدقنا في وجوههم جيداً، وتكاثروا في المطار، حدقوا في وجوهنا، ولم نعرف أحداً، لم يعرفونا، كانوا موظفين، مجرد موظفين.

امتد الصفُّ أكثر.. وامتدت يدي عبرَ كوّة الجدار الزجاجي لموظف المطار ببزته العسكرية. وعندما سألتُ، سألتُ الموظفَ المسؤول، الموظف الذي يضع الختمَ هناك في الجواز، عندما قلت له: أيها الأخ.. كان شابا، ولا يبدو عليه النزق، أيها الأخ.. نحن مدعوان.

فكرت: سأُربكه بالدعوة، بتقليب الصفحة، كتاب الدعوة الحافل بالألوان.

قلت للآخر: أخشى اختلاطها.

: ما هي التي تخشى اختلاطها.

: الألوان.. الألوان الموجودة في كتاب الدعوة.

وكان الموظف يقرأ، دون أن يَظهر على ملامحه أي تعبير.

رفع رأسه ببطء. سأل: أنتما مدعوان.

قلت: نعم.. أنا.. أنا والآخر.

وأشرت إلى الآخر

: من دعاكما؟

قلت: اللجنة.. لجنة الإحتفال.. هذا واضح.

قال: لَمْ أسمع باللجنة.. ولا بالاحتفال..

وناولني كتاب الدعوة.

وراح يُقَلِّبُ صفحاتِ الجواز بحثاً عن ورقة بيضاء يُلقي فيها ختمه، وناولني الجواز دون أن يلتفت إلي، فزجَّ الآخرُ جواز سفرهِ عبرَ الكوّة.

لم يتأكد الموظف، إن كان الجواز جوازَهُ فعلاً، كان يبحث عن صفحة بيضاء ليلقي فيها ختمه.. ووجدها.. حين ابتعدنا قال: اسألوا الآخرين.

ولم يكن هناك أحد يجيب.

* * *

حتى بعد توجيه استغاثات بلغةٍ عربيةٍ سليمةٍ، لم يكن هناكَ أحدٌ يجيب، كانت القذائف تزداد اندفاعاً وكثافة، والألوانُ تختلط ببعضها.

أمي قالت: يجب إنزال الغسيل عن السطح.

فقال أبي: الآنَ تفكرين في الغسيل؟

قالت: الغسيل سيجعلهم يقصفونَ البيت.

قال: سيقصفونَ البيت بالغسيل أو دونه.. إنها حرب.

قالت: ليست حرباً.. إنهم يقتلون الناس فقط، وبعد قليل يملّون.. حتى الجنود يملون.. عند ذلك سيقصفون حبل الغسيل.

ولم يكن أحد يجيب: «يا جماهير شعبنا العربي، إن المذبحة التي ترتكب اليوم...».

وكان المخيم.. سطوح المخيم.. ساحاته.. وأزقته: ساحة للرماية، ورياح البارود تهب من كل الجهات.

وعندما اهتزّ الملجأ الضيق بمن فيه قلنا: هاوتزر.

وقال الرجل ذو الأبناء، وهو يشد أولادَهُ إليه ويداري خوفه عليهم: ثلاثة أيام كافية لتحويل الجميع إلى خبراء أسلحة.

* * *

ولم نكن خبيرين بالسفـر، لأننا نسيناه، حين أقفلوا البلـدَ علينا، ولكنهم أشرعوه فجأة.. كما أقفلوه فجأةً..

وقالوا: اشبعوا سفراً.

قال: أكانَ علينا أن نسافر فعلاً.

وقلت: كنا نحتاج إلى معجزة.. معجزة ثامنة. لا تاسعة. لأننـا نحن الثامنة.. معجزة فقط، والإنجاز العظيم معجزة، من حقنا أن نرى معجزة واحدة غير منقوعة بالدم تتحقق، سنحتفل.

ونستل لوننا من هذا السواد.

وامتدت يدي، بحثت عن كتاب الدعوة، لم تختلط ألوانه بعد.

قلت: حشوتني بالهواجس.

سأل: أية هواجس؟

قلت: هواجس الألوان، هذه.

وكانت الثياب السوداء تحف بنا من كل الجهات.

توقفنا عند رجل طـويل.. وسـألناه، حـدَّقَ في الكتاب، وهـزَّ رأسه بالنفي، وعاد يحدق في الوجوه.

قلت: ربما ينتظر أحداً.

قـال الآخر: إنـه يراقب.. يـراقب.. ولا ينتظر.. أنظـر إلى خصره هناك.

* * *

أبي اشترى مسدساً، لكنه لم يكن يضعه هناك عند خصره، مسدس «بريتا»، لم أعرف مَن ذاك الذي زرع فيه أسطورة البريتا هذه، وحين عرض التلفزيون مسلسلَ «بَريتا» تذكرتُ المسدسَ، ولم يكن أبي هناك ليتابع المسلسل، كي يتذكر المسدس، المسدس الذي أخرجه حين هبت رياح الهاوتزر، حين أخذت البيوت تختفي، في ظاهرة غريبة، مُخَلِّفَةً وراءها حُفراً بحجمها.

أمي قالت: الطائرات كانت تتابعنا وتُلقي «الكيازين».براميل كبيرة ممتلئة بالنفط، فتختفي البساتين، بعيني هاتين، عيني اللتين سيأكلهما الدود، رأيت كروماً من الزيتون تختفي في لحظة، وتتحول إلى فحم، كنت صغيرة نعم.. ولكن من قال ان عيون الصغار أقل اتساعاً من عيون الكبار.

صمتتْ.

ثم قالت لأبي: أنظر إلى عيونِ أولادك إنها أكثرَ اتساعاً من عينيك.

ولم يقل أبي: إنها الحرب.

أبي الذي مال قلبه إلى مسدس البريتا، فاشتراه، وأحبه أكثر من كل أسلحة التنظيم.. وربما أكثر من أمي في الأيام التي أعقبت شراءه له.

* * *

اندفعت الأمهاتُ عبرَ البوابات، ولم يكن هناكَ أحد بانتظارهن. جمعنَ أطفالهن في أطراف أثوابهن السوداء الطويلة، توقّفن على الرَصيف للتأكد من وجود كل الأولاد، ودون أن يلتفتنَ، قطعنَ الشارع، هكذا، كان الخطرُ خلفهن.

* * *

وعبثاً ذهبت محاولتي لتوضيح الأمر للمرآةِ التي أقف خلفها.

قلتُ لها: أن الشرطي دفعنــي..
وقالت: قِلَّة أدب.. الناس في إيش وانت في إيش.
وقال الآخر: فضحتنا.
وابتعد قبل أن تصلَ إليه طراطيش من كلام المرأة، إذا ما تأكدت انه معي. وآبتسَم.

وقالت المرأة: هذا لا يليق برجل في سنك.
فقلتُ لها: يا أُختي..
ولم تتركني أكمل.
قالت: أنت لا تفعل ذلكَ مع أُختك.

وارتفعَ صوتُ شاب في السماعة. كان يهتفُ فتهتزُّ الشوارع، ولم اكن أهتف. فلم تكن الحرب قد بدأت، وكنت أسير فبـاغتتني حنجرتي.. وسمعتُ نفسي أردد خلفَـهُ.. فوجئت بـأنني أملك هــذا الصوت، ولكـني حين أنصتُّ إلى الأصـوات الأخرى، محـاولاً عزلَ كـل منها عن الآخـر، وأنـا أُحدق في وجـه ورقبـة وعـروق صــاحب الصـوت، اكتشفت القـوة السحرية المذهلة الساكنة هنا في حناجرنا.

وحين نظـرتُ إلى المرأة ثـانيـة، نظـرة خـاطفـة.. هُيء لي أنهـا مبسوطة مني، وأنها نسيت سوء التفاهم المتعلق بقفاها.

وتـلاطمت الجموع بـدخول مـوجة جـديدة من البشـر إلى جســد المسيرة من شارع جانبي.

* * *

قالت لي: لن أذهب..
وحـاولت أن أُوضــح لهـا انهـا المــرة الأولى التي أُشـارك فيهـا بمظاهرة.
قالت: إذهب، قد تكـون الـوصفـة التي لم يـدلّـك عليهـا احـد.. المناسبة لحالتك.
فهمتُ.. فخرجتُ صامتا.. تبعتني.. قالت: آسفة.

قالت: لا تتوهم.

خرجتُ مسرعاً.. وبدأتُ اقيس قامتي بقامة كل من يحاذيني، حتى دون أن أعرفه.. دون أن يشعر.

وقالت المرأة لي: قِلَّة أدب.

ثم نسيتْ.. وهيء اليَّ أنها مبسوطة مني.

فانطلقتُ بصوتيٍ إلى طبقات لم يَصلْها حتى يومَ مولدي.. ودفعتني الجموع.. فَمُجْتُ، كما ماج غيري.. واختفى الشارع.

* * *

وكن يقطعنَ الشارع، دون أن يلتفتن، كان الموتُ خلفهن، ولم يكن سيأتي من الجانبين، من سمعَ بسائق دهسَ ركابَ طائرةٍ بوينغ ٧٢٧ بكاملهم.. دفعةً واحدة.

كانت إحداهن قد كشفتْ عن قطعة من صدرها، صدرها المتعب، عن جلدها المتموِّج بالشقوق الصغيرة، كشفتْ عن شقاء عمرها كلِّه، وحمدت الله، فهمتْها النسوةُ اللواتي حولها. وفهمتُها. وقلتُ سيفهمها الأطفال، لكن ليس الآن، الآن عيونهم واسعة فقط، وحمدت الله ثانية، ولم يستغرب أحد، حتى موظف المطار، الموظف الوحيد، هناك، خلف النافذة الزجاجية، فهمَها، وفهمها الآخر.

وانفعلتْ أخرى، كانت صبية، بستةِ أطفال، حمدت الله دونَ أن تكشفَ عن صدرها.. وقالت: الحمد لك لأنك لم تجعلِ قلوبَ القتلة أقسى من ذلك، وإلا لقتلوا الأطفال أيضاً.

* * *

وقالت لي أُمي فيما بعد: إنها كانت مضطرة أن تُقَسِّي قَلْبَها، وانها كانت تحاول تذكُرَ أقوى صخرةٍ رأتها في حياتها، أكبر صخرة،

واختارتها من الصوان، لتقول لقلبهـا: كنْ مثلها..، حين كـانت تمرُّ أمـام الشهداء والوجوه التي شوهتها القنابل الفسفورية.

وقالت: كنت أريدكم أن تتماسكوا.. من أجلي ربما، من أجلكم، لو انفرط واحد منكم بكاء لقتلتُه أنا، وتصمت.. من تستطيع قتـلَ ابنها... لا لم أكن سأقتله، ولكنني لم أكن أحتمل.

* * *

ولم يكن ثم رجال.. سوانا.. أنا والآخر.

قلت له: لم يحدث أن طرتُ مـع مثل هـذا العدد من الأطفـال، هذا العدد يمكن أن تراه في مدرسة، وليس في طـائرة.. ولم أكن أعـرف، ان الطائرة التي تأخرت هي طائرة بوينغ ٧٢٧، وإلا لقلتُ لـه: لم يحدث أن طـرتُ مع مثـل هذا العـدد من الأطفال، هـذا العـدد يمكن أن تـراه في مدرسةٍ وليس في طائرة بوينغ ٧٢٧.

وقلتُ لـه: إذا بكوا دفعـة واحدة، سيختـرقـون حـاجـز الصـوت، وتتفتت الطائرة في الجو.

فقال لي: لن أبتسم. وأبتسم

وفي النهاية.. تأكد لي أنهم أطفال مثاليون، حين قالت واحـدة من أمهـاتهم: ليلتـان في المطـار مـع كـل هؤلاء الصغـار.. والله لـو أننـا أمريكان.. ما فعلوا ذلك بنا.

ولم يلتفت إليها الأطفال رغم عيونهم الواسعة، كان الرعب خلفهم. الرعب الذي آستلَّ آباءهم من بينهم لساحات الإعدام.

قلت: أطفال هادئون نسبياً.. مع أنهم محبوسون في قاعة الترانزيت منذ يومين.

وقلت: ربما كانوا فرحين بالمقاعد.. المقاعد الطويلة.. الخضراء.. التي تطل على العالم في حالتَي إقلاعهِ وهبوطهِ.

* * *

حين أمسكني عمي من يدي.. واخذني للسينما، وغضب يومها أبي، لأن السينما قلّة حياء، حين دخلنا هناك، حين خرجنا وسألني: هل أعجبك الفيلم؟

قلت: أعجبتني الكراسي.. يا الله ما أكثرها.

وحين قلت لأمي: لماذا لا يشتري لنا أبي كراسي..

نقلت سؤالي إلى أبي..

فقال: أأبيعُ حالي لأشتري له كراسي..

وعندما قال عمي ثانية: سآخذه إلى السينما.

عندما تجرأ على ذلك.

قال أبي: خذه..

ورحتُ أتقافز محاولاً الجلوسَ عليها كلها.. فعلتها قبل دخول الجمهور.

وقلت لعمي: لماذا لا يشتري لنا أبي كراسي من السينما.. فهي كثيرة.. والناس قليلون..

قال: كراسي السينما ليست للبيع..

وقلت: طيب.. لماذا ينفخ الرجل في فمِ البنت في السينما.

: لأنه يحبها.

صمتَ قليلاً.. ثم قال: إنسَ حكايةَ النفخ هذه.. إنساها تماماً، هذه ستبقى بيني وبينك.. مفهوم..

قلت: مفهوم.

* * *

ولم أقل للآخر: من أين يأتي كل هذا الرخام، الذي يشبه المرايا، ولستُ أدري، إن كان أحد الأطفال قد طالبَ أُمه برخامةٍ باعتبارها مرآة.

كانوا هادئين.. كأنهم بلا حناجر وهم يصعدون السلم.

قلت: ربما لم يشعروا بعد بالأمان.

وقال المضيف: هذا ممنوع.

وكان يوجه الكلامَ للآخر، كنتُ خلفَـهُ. قلت: إذا دفعني أحد ومِلْتُ عليه.. لن يلتفت ليقول لي: قِلَّة أدب..

وكان ازدحام خلفي..

وردَ المضيف: هذا ممنوع.. يعني ممنوع.

فناولته الزجاجتين اللتين معي، دون أن أناقشه كالآخر.

الآخر قالَ: نحن مدعوان.. وهذا من السوق الحرة.

قال: ولكنك لستَ حرا في حَمْلِهِ معك..

وكان يستعيذ بالله محاولاً أن يُقنعَ الآخر، انـه سيفقد صبـره، أما المضيفة فكانت تبتسم، من تحت لتحت.

وأكـد المضيف: إذ رأوه في المطار معـك.. سيعيدونك.. أو ربما يحبسونكَ.

قال الآخر: أنا لا أريد أن أُحبس.

وقلت: وأنا أيضا.

ورأينا أنفسنا متفقَين..

قال المضيف: افسحوا الطريق للركاب..

وكـان الأطفال يحاولون معرفةَ الذي يجري.. وهم يزجون رؤوسهم في أية فسحة تؤدي إلى اكتشاف سبب الخلاف.

: إجلسا.. في نهاية الرحلة.. يكون خير..

ووصلنا.. ولم يكن هناك خير.

: أُمسَكْنا من نقطة ضعفنا. (قلت للآخر).

قـال الآخر: من يستطيـع أن ينبس ببنت شفة، بصـوت عـال في مسألة كهذه؟

فقلت: ولا بآبن شفة.

قال الآخر: ماذا تعني؟

قلت: ولا حتى بحرف!!

وحـاولَ أن يبتسم.. فخرجتْ ابتسـامته بـاهتة، وحـاولتُ فلم أجد شفتي.

* * *

كانت مستغرقةً تماماً في عملية نهشها لشفتي.

قلتُ: لم يبق سوى أن أقطِّع نفسي لأطعمكم.

ولم يُفَوِّتوا الفرصة، اندفعوا بأسنانهم البيضاء، والصفراء، القوية والمخلخلة، السليمة والمسوسة، وتلك التي لم تنبت بعد، وكانوا مبهورين بمذاق لحمي.

أحدهم قال: كان يجب أن نأكله من زمن.

وقال الآخر: لا كنّا سنموت جوعا.

قلت: لعلهم انتظروا طويلاً كي أسمن، وعندما فقدوا الأمل أكلوني.

وكنتُ أراقبُ أعضائي تختفي في داخلهم.

وحده نعمان.. لم يأكل.

قال: الأب لا يؤكَل.

قلت: لم تزل الدنيا بخير.

وقالت له: ستموت جوعا.

وسحبت يدها الممدودة بقطعة مني وصرختْ فيه: ستبقى مثله.

ولم يحتج.

في آخر الليل أطلَّ برأسه عبر حُلُمي وقال: قَبِلْتُ أن أكون مثلك لأنك أحسن منهم.. ولكنني لن أبقى مثلك إلى الأبد.. مفهوم.

قلت: مفهوم.

وكنتُ أكملُ كابوساً كانت بطلته هي. فحمدتُ الله أنني لم أُنجب.

* * *

كنت أعددتها لأُمي كمفاجأة.. مفاجأة لم أتوقعها أنا نفسي، أنا الذي تطوعت لواحدة من الحروب البعيدة هناك.

أوقفتُها خارجَ البيت ودخلتُ: عانقتني أُمي.. وقالت.. والله كبرت.. وكنت غادرتها كبيراً. وسألتْ: كيف أبوك.

فقلت: ببوْسِك من هين.. ومن هين.. وأشرت إلى خديها فاشتعلا.

وقلت لها: معي مفاجأة..

هتفت: ما هي؟!

قلت: انتظري..

إنتظرتْ. خرجتُ، ثم عدتُ، ولم أكن وحدي، قالت أُمي وقد استنفرت كل حواسها دفعةً واحدة: جايب صاحبتك معاك؟

قلت لا: زوجتي..

فانهالتْ عليها تقبيلاً، حتى نسيتني، ثم فطنت أنني موجود، وإنني العائد من الحرب!، الذي كانت تتوقع أن يعفِّن في العزوبية، فزغردت، وقالت: والله غاب وجاب.

وسألتني: ولَكْ كنت بتحارب وإلاّ كنت بتحب؟!

ولم تكن تريد إجابةً. ظلت تزغرد.

وسألْتها: حبلى وإلاّ لِسَّة يا خالتي؟!

فحاولتُ أن أشرح لها أننا تزوجنا منذ أيام.. أيام فقط، فأدخلتنا إلى الغرفة.. الغرفة الكبيرة. وقالت: ياللاّ.. خلفوا بسرعة.

وكانت أمي أشبه بطفلة.

* * *

وكان وحدَهُ الطفل في تلك الشيخوخة. نعمان: الذي عاد يردد في الليلة التالية: لن آكل.. يعني لن آكل.

وضحكتْ هي بعد أن كانتْ التهمتْ شفتي. وقالتْ: يعني لأنَّ مدة صلاحيته انتهت.

عندها تذكرتُ الهُوَّة.

* * *

تذكرتها..

وكنت أسمع حفيفَ ارتطام ثوب أُمي بالباب، وهي تبحث عن

الثقب من جديد، بعد أن تريح عينيها، لتـرانا داخـل الغرفـة.. الغرفـة الكبيرة.. وكانت البنادق مصوبة إلى ظهري.. ويأمرني رجال غلاظ، وهم يغرسون فوهاتها في لحمي.

: هيا.. ادخلها.

وكان حفيفُ ثوب أمي يرتفع.. ويتحول إلى دقاتِ قنبلةٍ موقوته.

* * *

وكنا سننفجر.

دخـلَ الآخر إلى أحـد المكاتب. وقبـلَ أن يتحـدث دسست كتابَ الدعوةِ في يده، فأشرعه في وجه الموظف غير الحليق، الذي يجلس في نصفِ عتمةٍ ببرود واضح.

: نحنُ مدعوّان.. نريد أن نتحدث بالهاتف.. إذا سمحت.

: من دعاكما؟

: الذين لم يكونوا في انتظارنا!

قَلَّبَ الدعوة..

قال: العنوان غير واضح.

قلت: كيف يـكون غير واضح؟!

قال: لأنني أقول ذلك.. وأنا أعرف البلد.. أنا آبنها.

قال الآخر: هل نستطيع الإتصال بهم؟

قال الموظف: مَنْ؟

قلت: أصحاب الدعوة.

قال: تستطيع.. ولكن ليس من هنا.

قلت: ولكننا مدعوّان.

قـال: ولو. الإتصـال يكون من البـريد. وليس من المكتب، وأخـذ يهرش ذقنه غير الحليقة.. وينسحب إلى نصف العتمة.

* * *

الضوء الساقط من بوابة الملجأ. يضيء ارضيته، بمستطيل يشكّلُ

ثلثَ مساحته. في الثلثين الآخرين توزّعنا، كل له قطعة من العتمة، قطعة من الظل، والرصاصة عبرت، فتناثر التراب في وجوهنا. ولم يقل أحد: إنها رصاصة ٥٠٠ في البداية.

لأن الرصاصة فاجأتنا. وحرمتنا فرصة تبديد الوقت، في محاولة معرفة عيارها. لأننا كنا خائفين.

الرجل ذو الأبناء قال: الملجأ غير أمن.

وأبي قال: الرصاصة دخلتْ الملجأ مصادفة.. لا بد أنها ارتطمت بشيءما فانعطفت..

وأمي قالت: لن أخرج من هنا إلّا ميتة.. لن أبتعد أبدا عن البيت، هذا شقاء العمر كله.

وقال أحدنا: ربما قناص..

: ليست رصاصة قنص.

: ربما عرفوا مكاننا.

: كانوا أطلقوا قذيفة لو عرفوه..

: الرصاصة طائشة.

: أنت الطائش.. في الحرب ليس هناك رصاص طائش، كل الرصاص يُطلق ليَقْتُل.. لا ليطيش.

: الأفضل أن نغادر.

: لن أغادر.. ولن أترك البيت.. لن يغيب عن عيني.. سينهبونه..

: ما الذي يمكن أن يُنهب.. آه؟

تحسست أمي خصرها .. اطمأنتْ .. كنت أعرف أن نقودنا خرجت من الوسادة واستقرتْ في نطاقها .

وراح مستطيل الضوء يضيق ، برحيل الشمس إلى مغربها .

* * *

ورحنا نضيق.. ننكمش.. ولم أدرِ إن كنا سننفجر، أم نتلاشى.

قلت للآخر: ربما نكون أخطأنا.

قال: كيف؟

قلت: بَكَّرْنَا مثلاً، هل أنتَ متأكد أننا أتينا في الوقت الصحيح. أطرق قليلاً.

قال: فِكْرَكْ؟!

وفض كتابَ الدعوةِ على عجل. تابعَ السطور حتى وصل إلى حيث الأرقام التي تدل على التاريخ.

هتف: ١٦/٩/٩١. لم نخطىء.

قلت: الحمد لله.

قال: ألحمد لله.. ولكنك ستجننني.

قلت: أعدك ألا أفعل.. لكنّها فكرة..

ولحقنا الموظف. قالَ: معكم عملة صعبة؟

قلتُ: لا.. موقفنا هو الصعب.

قال: اذهبا إذن.. إذهبا.

عاد ودخلَ المكتب. اغلقَ البابَ خلفَهُ.. وسمعتُ المفتاحَ يدور في القفل.

* * *

أبي قال: الأبواب مغلقة، والمفاتيح في عبِّكِ، لا تخافي، وكان المساء مخيفاً، حيثُ أصواتُ الإنفجاراتِ تقتلعُ الأحشاء.

وقال الرجل ذو الأبناء الذي فقد زوجته من ثلاث سنوات: سأذهب من هنا.. سأبتعد بالأولاد إلى داخل المخيم، الموت مع الجماعة رحمة.

قلت: ألا يعتبرنا جماعة.. كم عدد الأشخاص الذي يجب أن نموت معهم.. حتى يصبح موتنا رحمة.

وقالت أُمي: الموت هو الموت.

وقال: سأنقلهم على دفعتين.. أنقل الأربعة..

ثم سألَ جارنا الصغير إن كان يجب أن يذهب إلى قلب المخيم. ليفتش عن أمه..

فهز رأسه: سأبقى هنا.

وكنتُ مستغربا أنه بقي صامتا طول الوقت..

* * *

نادى أبي جارَنا الصغير.

وكأنه تذكر شيئا نسيه من سنوات..

وكان وحده يسكن، في الغرفة التي تركتها له أمه، أُمه التي تزوجت ولم يحتمله زوجُها... فتركته، هناك، ركض أبي تحت مطر القذائف.. حتى وصله..

فباغتَ أبي بسؤاله: صحيتوا؟!

فقال أبي: وهل بقي أحد نائما حتى الآن؟!

قال: كنتُ ناوي أصحيكم.. بس قلت لسّه الوضع هادي..

وإنفجرت قنبلة قريبة.

قال: راح المطبخ...

فأمسكه أبي من يده وراح يركض به.. وهو يصرخ:

: شوي شوي يا زَلَمِه.

* * *

ومالت الشمس، أصبح الملجأ في الظل الحالك لمخازنِ التموين، المخازن التي انتصبتْ عاليةً خلفه..

وخرج الرجل ذو الأبناء باثنين من صغاره..

وأوصانا بالآخَرين.

قال أبي: إطمئن.. لكن.. انتبه.

وراح يتسلق الإنحدار الترابي المؤدي للغروب، فانهارَ التراب، وتجمّع في كومة صغيرة.. وانتشر غبارٌ ذكّرنا بغبار الرصاصة. وسمعنا خطواتهم تبتعد في الليل.

فبكت الصغيرة، اجتازت أمي حدود مساحتنا في الملجأ، وقطعت مساحة الضوء الساقطة من فتحة الباب، قادمة من قذيفة التنوير. احتضنتها.. فبكتْ صغرى أخواتي.. فسحبتها من يدها باتجاهها..

* * *

ولم يعد الأطفال فرحينَ بالحقائب التي تدور على الحزام. لأنهم يحملونها الآن. ولأنها ثقيلة، وكانت قافلة النساء تعبر الشارع دون أن تنتهي.

وتساءلتُ: هل هبطت طائرات أخرى محمّلة بهن؟

حاولتُ البحثَ عن وجه مألوف رأيته في رحلتنا، لم أجد..

قلت للآخر: طائرة أخرى مليئة بالأولاد والنساء.. نساء لا ينظرن خلفهن، وأولاد يشدّون على الأطراف الليلية لأثواب أمهاتهم. خوفاً من الليل.

«مكتب بريد»

دخلنا.. وكانَ الناس يتصلون عاتبين، وغاضبين، ومستسلمين للاجدوى محاولة الإتصال.

: هل تعتقد أنهم مدعوون؟.. سألت الآخر.

وكانوا يتحدثون بلهجات متعددة، لا شيء في صوتهم يوحي باحتفالية ما، يخرجون على عَجَل من الغرف الزجاجية للهواتف، ويقطعون الشارع دون أن يلتفتوا.

قلتُ له: ـ وكان رابضا فوق كرسيه ببرود ـ : نحن مدعوان.

قال: من دعاكما؟

فناولته كتاب الدعوة.

قال: ماذا تريدان ؟

ولم يكن قد قرأ الكتاب، اكتفى بالشعار الكبير المطبوع على زاويته العليا، ربما، وبالجُمل المحيطة به التي صيغت بدقة للتعبير عن اهميه الإنجاز.

قلت: نريد التحدثَ بالهاتف..
قال: تحدث.. هذا الخط مباشر..
ودفع الهاتف باتجاهي.
قلت: فُرِجَتْ.
ورأيت الآخر يبتسم، فأردت أن أُقلده، إلا أنني قلت كيف ستبدو ابتسامتي بعد اختفاء شاربي. قبيحة لا شك، لم أبتسم.

* * *

ولم أهدأ.. لم يهدأ أبي، لم تهدأ أمي واخوتي.. وتصاعدت الهواجس.. وتزاحمت في سماء الملجأ الضيقة حين عاد الرجل ذو الأبناء. الرجل الذي كان يهذي: جهنم الحمراء.. والرصاص قَلِيَّة.. سيدمرون كل شيء.. يضربون ليدمروا كل شيء.

وكنا قد خفضنا صوتَ الراديو الصغير. لنسمعَ الأخبار من مصدرها.

وقال: هناك القليل من الملاجىء.. البيوت قبور، وخطرة.. هناك تسويات لبعض البيوت. وهناك بيوت متوارية عن الخط المستقيم للقذائف والرصاص، ولكن لا شيء يفلت من مدافع الهاون.. والهاوتزر.. أرحم ما في هذه الحرب الدبابات، تدمر واجهات المخيم.. ويدمرها الشباب، الشباب جيدون. يقولون.. إذا دخلوا علينا سيذبحوننا كالنعاج.

وقال: المخيم تجمّع في الوسط، وأمسك بصغيريه.. وقال عليكم أن تغادروا الملجأ.. لأن الهجوم سيبدأ من هنا، وحاول أن يدفع الولد إلى الخارج، حين عاد وسحبه على عجل.. وهو يرى القذيفة الصاروخية تهبطُ مجنونةً، وتلتها أخرى وأخرى، وسكنت جهنمُ جوارنا، وسكنَّا جوارها، لم نتحرك، تناثر تراب، هبط من سقف الملجأ.. ومن جوانبه الصخرية المتفسخة، وكنا نرى بأذنينا انهيار المخازن خلفنا، ونشهدُ أعمدةَ النار التي تلفح وجوهنا. وتزرع أرضية الملجأ بمستطيل من الضوء الناري الذي يتسع.. ويضيق، ويتأرجح..

وقالت أمي: أشهد أن لا إله إلاّ الله.

وقال الرجل ذو الأبناء: نسيتُ أن أوصيهم بولديَّ خيراً. وطمأنه أبي.

وكنا نهتز مع انفجار كل قذيفة تقع خلفنا.

وقال الرجل: أن قذيفةً واحدة تُقَصِّرُ، ستقع في حِجْرِنا.

وقال له أبي: استعذ بالله.

فأستعاذ. ولم تتوقف صغيرته عن البكاء.. صغيرته التي تريد أمها.

وقال الرجل: كيفَ تريد أُمها.. وهي لم تعرف أمها أبداً.. وما كانت هذه المسألة الوحيدة التي تحيرنا.

وحده.. جارنا الصغير.. ظل صامتاً..

راقبته.. لم يكن يسمعنا.. كان يرخي أذنيه اللتين تتصيدان نداءات المذيع.. مذيع إذاعتنا السرية.

«يا جماهير شعبنا العربي.. ان المذبحة التي تُرتكب اليوم.....».

* * *

وكنتُ قد فكرتُ طويلاً.. قبل أن أبقَّ الحصوة.. وأفقد إمكانية سماع صوت مجيب على الطرف الآخر.

قلت: يا أخي التلفون ما فيه حرارة.

قال: أعرف.. أعرف ذلك.

وكان جالساً، ولم يبدُ عليه أنه أعطانا اياه ليسخرَ منا. وكان الناس: يتحدثون بحرارة، بلهجات مختلفة، من غرف الهاتف الزجاجية الصغيرة.

قلت: لعلهم يكايدوننا.. وليس ثمة حرارة في كل الهواتف. وظل جالساً، مشغولاً بشيء ما، تمرُّ أطيافُهُ الكسولة على جانبيه، موظف البريد هذا. قلت: يسخر منا.

ولم يكن يسخر.

قال: حاول مرةً أخرى.

فحاولت: وظل الخط بارداً.. وتصببَ العرقُ من جبيني وانحدر على رقبتي.

لو صعدتُ إلى سطح المطار، وناديتُ.. كانوا سيسمعونني.. أو لو انفجرتُ.

قلتُ للآخر: شوب.

فقال: لا..

قلت: ولكنني سأختنق.

وتدفق العرق أكثر.. تركت الهاتف. فانقض على السماعة بسرعة جنونية رجل بجُبةٍ وعمامة متسخة، من أولئك الذين ينامون ليالي طويلة في المطارات. وأدار القرص قبل أن يقول له موظف البريد، الذي نطق أخيراً:

سمحنا للأستاذ أن يتحدث بالخط المباشر لأنه مدعو.. هل أنت مدعو؟

فقال، وقد أكمل دورات الرقم الذي يريد: الإنسان لا يُدعى إلى بيته.

ولم يُعجب الموظف بالجملة.. ولا نحن أيضا. وقلنا: مزاودة. وهتف هو: آلو.. أيوه.. هو.. هو بعينه.

فقلت: الرجل يكذب، وهو متآمر مع موظف البريد، لقد حاولت مرتين.. ولم تكن هناك حرارة.

ودون أن أشعر وجدت أذني تدنو من أُذنه، هناك، أذنه الملتصقة بالسماعة، أحس الرجل باقترابي فابتعد، فعدتُ ووضعت أذني خلف رأسه واستمعت.

* * *

كانت الأصوات تندفع في الشارع.. مختلطة، أصوات خطوات، وبشر، كل آذاننا التصقت بجدران الملجأ الصخرية. وقلنا: إذا وصلوا الآن.. قتلونا.

وتصاعدت الأصوات في الشارع، يفصلنا عنها صف طويل من المخازن، وممر صغير بين مخزنين.

وهبت القذائف في موجة أخرى.. فتلاشت الأصوات، سوى صوت واحد كان يصرخ بألم.

وكنا قد ابتعدنا عن بوابة الملجأ، التي كان كوم التراب يرتفع أكثر فأكثر على عتبتها الداخلية الواطئة.. وتجمعنا هناك.. في أقصى نقاط الظلمة سواداً.

وقال الرجل ذو الأبناء: هذا التراب سيغلق بوابة الملجأ أخيراً، وكان ينهمر كتراب ساعة رملية مرتبكة.

وكنا مرتبكين.

هبطتْ قذيفةُ التنوير من سقف ليلة الموت بأطمئنان غريب، فقالت أُمي: الآن لن يميزوا بين ظلالِ الغسيل على السطوح وظلال البشر.

وقال أبي: معك حق.

قالت: كان يجب إنزال الغسيل من على السطح منذ البداية.

فقال أبي: بأينا تريدين التضحية..

فصمتتْ.. وعادتْ الأصوات تتصاعد على الطرف الآخر، خلف المخازن.. واختفى الصراخ المجروح فجأة..

قالت أمي: لعله مات.

وابتعدت الأصوات.. أصوات البشر.. أصوات الإنفجارات.. ابتعدت.

* * *

وابتعد الرجل بعمامته المتسخة.

وقال: لماذا لم ينتظروني.. واندفع صمتٌ كثيف.

ولم نعرف بم أجابوه.

وقال: إنني لا أعرف شيئاً في البلد..

وقلت: قد يتوه الإنسان في بيته!

وعاد صمتٌ فاحتلنا.

وقال: لو كان بإمكاني الآن أن أعود لعدت.

كان قد ألقى بالسماعة فأصدرت صوتا قويا، لم يعره موظف البريد إلا التفاتة صغيرة.. وإن كنا توقعنا انه سيخنقه، فاندفعتُ إلى السماعة، واتجهتْ سبابتي إلى دوائر القرص، وللمرةِ الأولى اكتشفت أن حركته ثقيلة.. وانحدرَ العرقُ على جبيني اكثرَ وأكثر.

قلت: ربما بسبب الجهد الذي بذلته في إدارة القرص الثقيل.

* * *

حين رحت أشد على الحبل وعلى نفسي، كنتُ منقوعاً ببحر، أين كان كل هذا الماء.. كأنني جَمَل..

كان الحَبْل مشدوداً إلى حديد شَبَكِ الحماية المثبت بالنافذة، ينحدر من أعلى السطح، وينعقد بقوة.

قلت: أكان لا بد من ثلاثين عقدة كي تطمئن أُمي أن الحبل لن يفلت، ويتسخ الغسيل.

وأحسستُ بهواء يأتي من داخل الغرفة، فعرفت أن الشباك مكسور.. ورأيت الباب يتأرجح بصمت أيضا.. ولمحت ظل أبي الذي كان يبحث عن أي شيء يؤكل أو يُلْبَس.

انطلقتْ قذيفة تنوير في اللحظة التي فككت فيها العقدة الأخيرة، فانساب الحبل بما عليه، ولكنني في اللحظة الأخيرة، أوقفتُ اندفاعَهُ، وأحسستُ بالعمود الخشبي يتأرجح فوق السطح، ويتأرجح معه الغسيل، وكان ظل أبي امامي محنطا، ولمحت أبي كعمود ملح.. وفجأة

وقع، وقع العمودُ الخشبي على السطح محدثاً دوياً هائلاً، لم يسمعه غيري.. فهربت قبل وصول القذائف.. وسمعت خطى أبي المرتبكة خلفي..

قلت: سيفتقدون حبل الغسيل..

وقالت أمي: سنفتقد البيت إذا افتقدوا حبلَ الغسيل..

وقال الرجل ذو الأبناء: لن أغامر بالولدين دفعة واحدة، سأوصل الصغيرةَ.. وأعود للصغير.

وقال أبي: لا تذهب الآن.. هذه الساعات خطرة..

فقال: ستكون الساعات القادمة أخطر، المدافع لن تصمت.. ما دامت ابتدأت..

وقال أبي: ستأتي النجدة.. العالم لن يصمت.

وقالت أمي: لم تكن هناك نجدة في أي يوم من الأيام.

واندفع الرجل ذو الأبناء عبر بوابة الملجأ.. فارتفعت كومة التراب واختفى في الليل.. راحت خطواته تضعف.. تتلاشى.. حتى غدت أشبه بأنين.

* * *

ثمة صوتٌ.. قلتُ للآخر.. هناك صوت.. الصق أذنه بأذني، وبيننا السماعة: لا أسمع.

ناولته السماعة. قلت: إسمع.

وقال: هُوًّ وقِلْتُه.

قلت: من الممكن أن يكونوا غادروا المقر باكراً.

وقال: لا أظن.. الهاتف هو السبب.. ما الذي يؤكد لك أن هاتفاً بلا حرارة يمكن أن يوصلك بأي رقم.

حاولت مرة أخرى.. وحاول هو، وحاول موظف البريد، وفقد رجل صبره.. كان ينتظر دوره، اختطف السماعة من يدي، معتقداً أن هذا الهاتف أيضاً للجميع.

: دعونا نحاول على الأقل.

وحاول

وساد صمت، لم نعد نسمع معه حتى الضجة المنبعثة من الغرف الزجاجية الصغيرة للهواتف. وفجأة قال بفرح: آلو..

أوشكتُ أن أنفجر.. وقال الآخر: وأنا..

ولم أكن قد قلتُ له: انني أوشكت أن أنفجر.

ولم يقل موظف البريد شيئا.

اقتربت منه.. أدنيتُ أذني من السماعة، فَحَوَّلَها إلى أذنه الأخرى، فاقترب الآخر من أذنه الأخرى، فأمسك بالسماعة بكلتا يديه.. ورشقنا بنظرة حمراء.

أعاد بعدها السماعة إلى الأذن المقابلة لي، وظل يهزُّ رأسه، ويهزها.. دون أن يتكلم..

قلت: في حالة تلقي الأوامر.. يمكن أن يقول: نعم سيدي.. حاضر سيدي.. ولكن، هذا يهزّ رأسه فقط.

وضع السماعة.. رمقنا بنظرة غريبة، ثم انطلق وهو يهزُّ رأسه كما كان يفعل مع الهاتف.

* * *

قال الآخر: كان علي ألاّ آتي.. كان يجب أن أبقى هناك.. أن أفهم أن قيامة المعجزة، لا تأتي بين مذبحة وضحاها.. نكسة وضحاها.. هزيمة وضحاها.. على أية حال.. لم تعطني صحبتُك غير تعبِ القلب. وأنت تعرف. قال: أنت تعرف لماذا أتحملك.

قلت: أعرف.

فاجأنا صمت. قطعتُهُ: انتظرني هنا.. سأتكلم من شركات الطيران.. من الأبنية المقابلة.. انتبه للحقائب.

* * *

ومرّ الطيران من جسدي.. آلاف الطائرات.. واندفع صاروخ عابراً سماءنا.. ألقتْ باللحاف بعيداً.. وقامت ترقص: صاروخ!!

صواريخ.. صواريخ.. صواريخنا.

ورقصت معها.. وبكينا.. بكينا فرحاً.. وتعاركنا.. تدحرجنا على الأرض.. فوق السرير.. فوق الصحف التي تراكمت في الغرفة.. فوق المذياع الصغير.. وتداخلنا، فضضنا سرَّ غاباتنا.. جوعنا للهواء.. وأشرعتُ النافذة.. تفقدت الفضاء كان هناك، أشرعت الباب.. كانت العتبة أمامه.. وتليها الأرض.. الأرض بكل ما فيها.. وفتحت قلبي.. وجدتها.

وقالت: اغلق الباب.

قلت: لا..

: الشباك..

: لا..

وقالت: لم تذهب المظاهرة سدى..

رنَّ جرس الهاتف: افتحوا التلفزيون..

وعرفنا أي تلفزيون يقصد.. فتحناه.. كان زامور الخطر يدوّي. وكان الصوت على الطرف الآخر قد اختفى..

ولم يكن يريد أن يقول أكثر من ذلك.. ولم نكن نريد أن نسمع أكثر من هذا..

وانطلق رنين الهاتف ثانية.. فرفعت السماعة.. لا.. ألقتْها بعيداً.. وسمعناه يصرخ: ألو..

وكنا نصرخ.. نتدحرج صاعدين الهوة..

التصقنا هناك عند حافة النافذة.. كانت المدينة غير المدينة.. خرجنا للحوش.. حيث كانت هناك سماء أخرى، غير تلك التي نعرفها.

قالت: سنمرض..

قلت: فلنمت.. بعد الآن..

قالت: لا.. لسه بدنا صواريخ..

* * *

وقال جارنا الصغير: لماذا لم يطلقوا صواريخ «غراد» حتى الآن..

وقال أبي: شو عرَّفك بصواريخ غراد؟

قال: أنا ميكانيكي.. وأعرف السيارة من صوت ماتورها دون أن أنظر إليها..

وقالت أُمي: ما علاقة الصواريخ بالسيارات.

فقال: إنه إشتغل في كراج المقاومة.. وانه شبل.. وكنا نعرف ذلك.. ولكننا لم نكن نعرف قدرته على التمييز بين صاروخ وصاروخ.

وقال المذيع: يا جماهير شعبنا العربي......»

فقال جارنا الصغير: يجب أن تنطلق صواريخ غراد الآن.. إذا لم تنطلق الآن.. لن تنطلق أبداً..

وكانت بوابة الملجأ تُفضي إلى سماء ملتهبة..

* * *

والسلالم المؤدية إلى مجمع الشركات مضاءة.. وفوقها سماء بظلام دامس. ومصابيح النيون تفضح عري المكاتب، المصابيح البيضاء إلى درجة مؤلمة.

وصلتُ البوابة الرئيسة.. دفعتها.. فاندفعتْ.. تبعتُها للداخل.. ثم خلَّفتُها ورائي.

بعد خطوتين أو ثلاث خطوات توقفت، كان المكان خاليا، المقاعد، الطاولات، ولم يكن هناك غير صور، صور كبيرة، بألبسة تبدو غير مرئية، لفرط شفافيتها. تخفي الوجه.. الوجه الذي يبدو قاسيا أحيانا، رحيما أحياناً، باللباس العسكري أحيانا، وأحيانا بالمدني.

وتحت إحدى الصور كُتِبَ: مهندس الإنجاز الكبير. ولم يكن ثمة أحد غير صوره.. هل غادر الموظفون المكاتب وتركوها له.

ألواح زجاج كبيرة، تفصل الغرف عن بعضها.. والمشهد كامل الوضوح، حاولتُ أن أدفعَ بابا زجاجيا، نصفه الأسفل خشبي، اندفع.. ناديتُ: هل ثمةَ أحد هنا...

هل ثمة أحد.

وخرجتُ، قبل اتهامي باقتحام مكاتبَ رسمية.. وكانت عشرات الهواتف البيضاء خلفي صامتة.

وقبل أن أبلغ الباب الرئيسي.. انطلقتْ كلّها في موجات رنين متقاطعة. متشابكة، تسمرتُ مكاني، وللحظات لم أستطع نقل إحدى قدمي.. لتحقيق خطوة واحدة فقط.

وقلت لنفسي: إهدأْ..

* * *

وقالت لي: إهدأ.. الأيام قادمة..

وهدأتُ..

* * *

وظل صدري يعلو ويهبط..

* * *

وهتفتُ مقهوراً: ألا يوجد أحد هنا.

وانتظرت.

: ماذا لو كانوا يلهون الآن، ماذا لو صاحوا دفعة واحدة، وهم يُطلونَ برؤوسهم من تحت المكاتب.

: مفاجأة.. هل رأيت.. نحن ننتظرك منذ زمن هنا.

* * *

وقالت إنها انتظرتني.. انتظرتني طويلاً..

وقلت لها: لقد عدتُ.. و...

وصرختْ: لقد عدتَ..

وكان زامور الخطر قد توقف.. وتحدث المذيع بالعبرية.

* * *

وظلت الهواتف صامتة.. وقلتُ تُبا لشركات الطيران والطيران..

* * *

الطيران الذي قيل انه يبحث عن المنصات. كان يبحث عني..

وتبا للهواتف التي توقف رنينها ليلتين كاملتين..

وقالت: اطمئن وكانت تنظر معي إلى السماء بلهفة، حيث كل شيء غامض.

* * *

وكنتُ سألتُ موظفةَ الطيران. سألتها بالهاتف.. بعد تصفحي للتذكرة. محاولاً أن أكون رصينا ما أمكن.

سألتها: لقد لاحظتُ أن التذكرة باتجاه واحد - ونْ وي - أليس كذلك؟

قالتْ: نعم..

قلت: لماذا؟!

فقالت: لقد فكروا هناك.. واكتشفوا أنكم قد تحبون تغيير خط عودتكم.. أو تذهبون إلى بلدٍ آخر.

قلت: عجيب.. - ون وي -

فقالت: لا عجيب ولا حاجة..

وقال الآخر: هذا يحدث معي للمرة الثانية.

سألته: ومتى كانت الأولى..

قال: الأولى.. الرحلة إلى الآخرة.. وضحك..
قلت: تضحك!!

* * *

ولم يكن يعرف الضحك حين قابلته للمرةِ الأولى.. كان مغطىً بالدم.

* * *

حين وقفَ على بوابة الملجأ، وسدّ الفضاء المعتم بقامته، ارتجفنا.. قلنا: وصلوا.

وظلَّ واقفا هناك.. غامضا، إلى أن أضاءت قذيفةُ تنويرٍ جسده.. فعرفناه.

كانت صغيرته بين يديه..
وتساقطتْ القذائف بعد قذيفة التنوير.

* * *

كان يركض.. تجاوزَ الممر.. مخازنَ التموين.. قطع الشارع.. وصل الفُرن.. حين تعثر في العتمة.. فسقطت الصغيرة، صغيرته، وسقط معها، وقفت تبكي.. وقفتْ قبلَهُ، وكانت القذائف تسقط قريبةً منه، هل رأوه.. ولم يكن هناك تبادل إطلاق نار.

الصمت الليلي يحمي مواقع نيراننا..
وحاذته قذيفة أُخرى.. شدّ البنت إلى الأرض.. صمتت القذائف قام يركض.. حَمَلَها.

: أي جنون ذلك الذي يحسه الآن لزجا.. دافئا على ساعديه..
ولم تقل البنت: آه.

كل شيء يغلي، ويندفع خارج بطنها.. وأضاءت قذيفة التنوير، كانت امعاءُ البنت مندلقةً كلّها.. جُنَّ.. ردَّ الأمعاءَ بكل رعبه..،

واصابعه.. براحتهِ التي راحت ترتجف.. وبعينيه الفزعتين.. المفتوحتين على الموت.. ردَّ أمعاءها وقلَبَها على ظهرها.. وجهها للسماء.. مُصفَرَّة كانت.

وصاح صوت من بعيد: يا حاج خُذ الأرض.

ولم يأخذ الأرض.. الأرض هي التي تأخذه.. تأخذ كل شيء.. تأخذ الصغيرة وتأخذ أمها..

وعاد الصوت: خُذ الأرض..

اي جنون أصاب الشظية.. اي جنون مُحْكَمٍ اصابَها، وهي تمرُّ هكذا.. تشرط الفستان.. وجلدَ البطن.. وتمضي. كأن صوتها ميتا..

فصرخ: هل ماتت..

وقالوا: خذ الأرض..

ولم تمتْ.. كانت حية.. تتنفس.. وتقول له ان الضوء قوي.. وان الأولاد يلعبون.

* * *

أخوها الصغير كان يركض داخل جمجمتها الصغيرة، هاربا بمفاتيح «النَمْلِيَّة».. هاربا بالكبريت، الكبريت الذي يفتته في الفتحة الضيقة للمفتاح، المفتاح الذي ربط رأسه بسلك قوي، فأضحى مثل شاكوش، والمسمارِ الصغير الذي كان يزجه في الفتحة الضيقة، ثم حركةُ يده، وهي تهوي على الحائط بالمسمار، وحركة يديها وهي تحاول أغلاقَ أذنيها، خوفَ الإنفجار.. الإنفجار الذي كان يخيفها، فتهدده بأُمها، أمها التي كانت ميتة. ولكن الأطفال كانوا يهددون بعضهم بأمهاتهم.. وكانت تهدده أحيانا بأبيها الذي غيَّر آسمها.. لأنها أضحت خاتمة نسله. هو الذي لم يفكر يوما بقطع حبل الخِلْفَة.

وعاد الصغير ليملأ الثقب بالكبريت، غيرَ عابىء بتهديدها، غير عابىء بأمها.

: لماذا لا تخاف من أُمي.

كانت تسـألـه.

ولم تكن تعتقد أنها أُمــه أيضاً.. هي أُمهـا وحدهـا.. تلك التي لم ترها.

* * *

وكانت هناك.. وكان واقفا.. قالت له: سأقول لأُمي..

قالت لأبيها: سأقول لأُمي..

وأبي شدَّه.. وأدخلَه.. وأُمي خلعتْ غطاء رأسها وسـدت به بـوابةَ الملجأ.. وأبي أشعل عودَ كبريت... وتسـاقطت قذائفُ. وقـالت الصغيرة لأخيها: سأقول لأُمي.

وكان الصغير خائفا من أُمه للمرة الأولى، فسكتَ، وقالت له:

لن أقول لأُمي يا خوَّيف..

وخفنا كلّنا..

ولم يطمئن أخوها.. «يا جماهير أمتنا المـاجدة.. إن المـذبحة...» بطنها المفتوح كان يحيّرنا.. ما الـذي يمكن أن نفعله، لم نسـأل.. ولكن بطنها المفتوح ظل يراقبنا إلى أن ماتت.. إلى أن أغمضت عينيها..كانت متعبـة.. وبكى الـرجـل.. وأدرك الصغـار أن أُمي تكـذب.. حين قـالت: اصمتوا.. البنت نامت..

وخـرج جارنـا الصغير راكضـا، تبعـه أبي.. لكنـه آختفى.. كـان جسده يظهر ثم يتلاشى مع العتمة.. كلما آنفجـرت قذيفـة قربـه.. ومن بعيد، قال لأبي: عُدْ.. سأعود أنا.. سأعود وظل يركض.

* * *

قال أبي: لا تخافوا عليه.. هو الذي رَبَّى نفسَهُ..

وقلتُ للآخر: لم يكن باستطاعتي النوم.. ما دام شباك غرفة جارنا الصغير مضاء.

كان يكفي أن يغمض الأب عينيه عن ابنه، حتى يفقده، أو تغمض الأم عينيها..

أبي الذي لم يكن يقرأ، كان يقول لي: سَمِّعْ لي درسك.. فأتناول كتاب القراءة واقرأ.. كنتُ أخشى التأتأة، أو الوقوع في خطأ.. وكان يكتشفني: اليوم لم تدرس أليس كذلك.. ويطالبني بأن أنسخ الدرس عشرَ مرَّات.. وكنتُ أنسخه، فيأتي، وقبل كل شيء يسألني.. أين الدفتر.. أُناوله إياه.. يبتسم.. او يهدر: خطك زي الزفت..

كان يضمن بذلك أنني لن أفارق البيت..
وكان جارنا الصغير لا يفارق البيت.. بيته.. بعد أن انسحبتْ أُمه وراحت.. اختفت مع زوجها في المخيم..

: تريد أن تنام.. أنظر إليه.. إنه سهران..
وتشير أُمي إلى غرفة الصغير..
الصغير الذي لم يعرفوه كما عرفته.. حين قلتُ له: يا عم.. ما في زيِّك.
الصغير الذي بكى.. حين قال: أُريد أن أكون مثلكم.

ونحن بكينا، أمنا لا تبكي حين ننام، والرجل، لماذا يبكي حين تنام ابنته..

ولم ينم أحد بعدَ أن نامت.. وكنا نشكُّ في كلامهم.

* * *

وكان يشكُّ بكلامي.. لم يصدق ان ما تحت الطائرة غيم.
قال: الغيم لا يكونُ تحت الطائرة. فأقسمتُ له أن ما يراه ليس سوى الغيم.
فقال: جبال
قلت: غيم
فقال: لو كان غيماً لرأيته من قبل.

قلت: كيف.. وهي رحلتك الأولى بالطائرة.

قال: حين حملتني القنبلة إلى هناك.. إلى السماء وكان يشير إلى سقف الطائرة!

وقال: هذا ثلج.

ولم أناقشه.

* * *

كانت القذيفة تقترب.. وكنّا نراها.. ونحن نسمع صوتها.. تتقدم كما لو آنها صُوِّرَت بالبطيء.. وتنفجرُ ناثرةً أمعاء الأرض، مُطوِّحةً بكل ما تطاله إلى السماء..

قال الرجل ذو الأبناء الذين نقصوا واحدة، بعد أن عثرَ على نفسه، بعد أن تذكَّر صغيرَهُ، وأخويه في الجانب الآخر من الليلة..

: سيقتلوننا كلنا إن وصلوا.. وسيصلون.

وضع صغيرته جانباً.. وضعها بهدوء.. وكأنه كان يخشى أن تصحو فتطلب أمها.

: سيقتلوننا إن وصلوا.

: لو يصلون.. فقط لو يصلون.

: ماذا.. ماذا تقولين؟؟

: لو يصلون.. لعلهم يكتشفون أننا بشر.

وصمتنا فجأة..

* * *

وكنا خائفين أن نجرح الصمت.. الصمت الغامض، حتى تلكَ المرأة التي قالت لي: تِسْمَحْ..

وقلتُ لها: تفضلي.

وجلستْ بجانبنا.. ظلت صامتة.

وحين جاءوا لنا بطعام العشاء.. مدَّتْ المرأةُ يدها إلى كيس

بـلاستيكي، وأخرجتْ رغيفَ خبـز كـبيـر، قسمتـه نصفين.. ومـدتْ لي نصفَه، والنصف الآخر للآخر.. اعتذرنا.. فرفضت آعتذارنا.

وقالتْ: خبز الطائرة زي الخبز في مسرحية عادل إمام.

وحاولت أن تضحك.

قالتْ: خبز مرضى.

وقـالتْ: إن أختها أوصلتْ أرغفـة الخبز إليهـا في المطـار.. لكن الأخت لم تستطع الدخول.. صمتت.. ثم قالت: دبرت حالها ولقت واسطة عشان الخبز.. الخبز بَسْ.

وحاولت أن تضحك.

: رغيف الخبز بحاجة إلى واسطة.

وقالت: ليش ما توكلوا.. لتْكُونُوا مِدِنْ؟!

قلت: لا مِدِنْ ولا بطيخ!

فقالتْ: كلوا..

وأكلنا.

* * *

كان الخبز مشكلتنـا.. قالت أُمي: لـدينا مـا يكفينا لثـلاثة أيـام.. وانتهت الأيام الثلاثة..

وقالت لأبي: عليك أن تُخـرجَ برميـلَ الطحين من المطبخ وتضعـه في حوش الدار، لأنها إن تهدمت سنموت جوعاً..

وغاب أبي في الليل. تاركا ساعة الرمل المرتبكة تتساقط خلفَهُ في الملجأ..

كانت المدافع قد تعبت.. هل تتعب المدافع؟؟

وكنا تعبنا..

لم نُصدّق أن الصغيرةَ ميتة.. لم نصدق أنها نائمة..

وكان الوقت ثقيلاً.

* * *

قال لي الآخر: تأخرت.

وهتف: حين آنتهت مشكلة إيجاد هاتف، ابتدأت مشكلةٌ أُخرى

سألته: كيف؟

قال: الأرقام لا تجيب.. الأول مشغول إلى الأبد، والثاني لا يجيب..

قلت: نخرج إذن.

وخرجنا..

سار خلفي.. قطعَ الشارع.. لم يلتفتْ. التفتُّ أنا، وللمرة الأولى من زمن، احسسته متعباً، كيده المبتورة.. يده التي لم أرها.. ولم يعد يذكرها..

قال لي مرة: من يدري لعلها هنا.

ومررَ أصابعَ كفِّهِ اليسرى على كتفه.. ومَسَّدَ الهواء، الهواءَ الذي قال، لعله يده.

ثم هتف: هنا تنتهي يدي.

وقال: إن أصابع يدي المبتورة باردة.

وحاول أن يضحك.

عدتُ إليه بعد أن اسندتُ الحقيبةَ إلى طرف الرصيف المقابل.

قلت: مالَك..

قال: لا شيء.. بس.. معقول اللّي بصير؟

تركته يوصل الحقيبة إلى الرصيف.. وأنا إلى جانبه..

لم أقل له: دعني أحملها عنك..

هذا يضايقه.

وقلت: لا عليك.. سائقو التكسي يعرفون كل شيء في المدينة..

* * *

سألت أحدهم فسألني: أي احتفال.

قلت: الإحتفال بالإنجاز الكبير.. الإنجاز العظيم.. قل ما تريد.

ضَحِكَ.. وضحك ثم توقف قليلاً.. اعتقدت أنه سيجيب، لكنّه عاد وضحك من جديد.

: يا أُستاذ الإحتفالات هنا لا تتوقف.. الإحتفالات طوال السنة... ولَوْ. ألا تقرأون أخبارنا..

قلت: أين تنزل الوفود.. في أي الفنادق.

قال: فنادقنا كثيرة..

قلت: أكبر فندق..

قال: كل فنادقنا الحديثة كبيرة.

قلت: شكراً.

* * *

فكرتُ بالعودة للبريد.. قلت: سأُحاول مرةً أخرى.

وقال الآخر: لا تتعب قلبك.. استرح قليلاً.

جلستُ على حافة الرصيف.. أحسست بالطقس يتغير.. عندما تنبهتُ إلى العرق المتصبب من جبيني.. تحتَ إبطي.. و«هناك» كان يبدو أنه يتجمع في تلك النقطة الحالكة.

قلت له: كيف يستطيعُ، أن يكون بارداً إلى هذا الحد.

: مَنْ..

: موظف البريد.

قال: بهذه البرودة.. كيف «يفعلها»؟

وفهمت.

أحسست بوخز موجع هناك لكنني لم أجرؤ على مد يدي كي أهرشَ المكان.

* * *

وقال لي: أن يدَه المبتورة تهرشُه أحياناً..

وحاول أن يضحك.

قال: قلتُ لها ذلك.. لم تصدق.

حاولت أن تضحكَ. ثم غابتْ.. وبدتْ نادمة حين عـادت . ألف مرة غابت.. ثم عادت..

وقالت: احضني الآن.
وخفتُ.
قالت: احضني.
وحضنتها..
تصببَ العرق من جبيني.. من يدي المبتورة.. أتُصدق؟
قال: تمنيتُ لو آنها غابت من زمن.. وأحسست أن هذا آخر غيـاب يمكن أن يفصلنا.. وحضنتها بيد واحدة. لا. بآثنتين!!!

وقال الجزار الذي أطلت عيناه بفزع من جمجمته..
: شو يا أخ.. فاكر حالك في أوروبا..
لكنه فجأة اعتذر
قال: يدي المبتورة أخافته.. عرفتُ ذلك..
وقالت: إنها تخاف من يدي..
سألتها: هذه؟!
قالت: لا.. المبتورة!

وقالت إنها أتت للوداع فقط.. وحين ابتعدتْ لـوَّحت بيد واحـدة.. وحاول أن يضحك.

قـال: لم أخف منها.. لم أخف حين لـوَّحت بيد واحـدة.. حزنتُ.. حزنتُ فقط.

* * *

وصمتَ طـويلاً ثم قـال: لو كـانوا يعـرفون أن يـدي مبتورة.. لمـا دعوني للإحتفال..
قلتُ: لماذا؟
قال: لأن يداً واحدةً لا تصفق.
وحاول أن يضحك.

* * *

ومدت المرأة يـدها.. بقـرنين من الموز، اخـرجتهما من كيسهـا.. اعتذرنا.. فهزتْ رأسها رافضة اعتذارنا بإصرار طيب.

قالتْ: والله.. لم أحصل عليه إلاّ بالواسطة.

وحاولتْ أن تضحك.

ثم استـدارتْ ووزعتْ بقيةَ المـوز على الأطفال في المقعـد الـذي وراءنا..

قلت لها: لم تُبقِ شيئاً لنفسك.

ومددت يدي لأعيدَ إليها حصتي..

قلت: سنتقاسمُ أنا وإياه.. وكنت أشير للآخر..

سنتقاسم حصته..

قالت: لا هذه حصتكم.. أنا أكلت زمان.. أكلتُ كثيراً.

* * *

ومدت أمي يدها للخبز ووزعته بيننا.. وقالت: كلوا، فلما أكلنا قلنـا لها: أنت لم تأكلي..

فقالت: أنا أكلت زمان.. أكلت قبلكم.. وكانت تَضْمُر.

* * *

والملجأ الضيق كان يضيق بمنْ فيه.. بظلمة الليل.. ببابه الذي لم يعد يفضي إلى أرض.. سوى تلكَ الأرض المحروقة.. بالـدمار المحيط.. وبالهدوء القاتل الذي انتشر.. مترصداً ضحاياه.. مُصغيا إلى أنينهم..

قال أبي: الآن.. لعلهم يجهزون للإقتحام..

الآن يجب أن نخرج..

ولم يصل أحد منا الباب.. سمعنا قرقعةَ سلاح.. وبساطير وأوامرَ حـازمة تخـرج من بين الأسنان. كتمنـا أنفاسنـا.. ولكن خفقان قلـوبنا ارتفع.. وظل يرتفع، يتصاعد.. وكـانوا يقتـربون.. بـدأوا بالـزحف على الأرض.. باتجاه بـوابة الملجـأ.. وصلوهـا.. وظل خفقـاننا يـرتفع.. كم تتحمل أيها القلب.. قلتُ للآخر..

: كم يتحمل هذا القلب..

إندفعَ أحدهم.. وإذا به أمامنا.. سدَّ البوابة بجسده.. وفتح عين كشاف قوية.. كانت الصخور قد كفت عن استيعابنا.. لقد التصقنا بها أكثر مما يجب.. دخلنا فيها أكثر مما يجب.. لم يصرخ الصغار.. صمدوا ثواني كاملةً.. ثم انفجروا.

وصرخ المدجج بسلاحه: ملجأ.. مدنيين..

وجاءه الأمر: إذبحهم..

وكان أبي يختفي ملتصقاً بالحائط الذي يجاور الباب، لم يكن المدجج قادرا على رؤيته.. المدجج الذي جاء له الأمر..: إذبحهم.. فاستل خنجرَهُ اللامع وتقدم كنصف جبل.

واكتفي الرجل ذو الأبناء بضم صغيره.. ودون أن يشعر انحنى.. وتناول صغيرته الميتة عن الأرض وأخذها بين ذراعيه.. ضمهما إلي بعضهما..

* * *

لم يكونوا يريدون إطلاق نار.. لأن المواقع خلفنا ستنتبه.. وكنا نعتقد أن هناك مواقع أمامنا تحمينا.

انفجرت الصغيرات.. الصغار بالبكاء.. وأمسكني المدجج من عنقي.. عندها لمح أبي هناك.. أبي الذي اندفع فجأة بإتجاهه.. ولكنه فوجيء بفوهة البندقية تنقض على صدره.. فارتجَّ.. سقط.. وجَّهَ المدجج سلاحَهُ لأبي وقال: بطل؟! سنذبحكم كلكم وعاد وأمسكني من عنقي.

كانت رائحة طلاء الأحذية تفوح من وجهه.. وجهه الذي اختفى خلف خطوط سوداء عريضة..

قال: ابنكِ هذا؟.

هزت أُمي راسها..

: كيف تحبين أن أذبحه.. من عنقه أم بطعنةٍ هنا في القلب.. أم هنا بين رجليه. وكان نصل الخنجر قد أصبح هناك بين فخذي. نشف ريقي.. ونشف دمي.. وبدأت رجلاي تهتزان..

قال: خائف..

وجاء الأمر: ما الذي تفعله في الداخل.. اذبحهم.. رفع السكين باتجاه عنقي وقال سأطعنه هنا.. وهنا وهنا..

اندفعتْ أمي سحبتني إلى الخلف.. فأفلتُّ من يده.. انتصبت بيني وبينه.. وقالت: ستقتلني أولاً..

قال: لا أنتِ بعدهم..

سمعنا حركة عنيفة في الخارج.. وأوامر: ارفعوا أيديكم أنتم مطوقون.. وسمعنا قرقعة سلاح يُلقى بعيدا.

وأدرك المدجج في الداخل أن مجموعته آستسلمت، فألقى سلاحه فجأة.. وهبط إلى نعلي أمي: دخيلكم.. ثم حبا باتجاه أبي.. وقد نسيَ إلقاء الخنجر الذي في يده.. الخنجر الذي ما أن رأته عيناي حتى بدأتا تدوران وتتحركان حيثما تحرك.

وجاء صوت من الخارج: هل هناك أحد في الملجأ..

قلنا: إحنا!!

: هل اصابوكم بأذى؟!

قلنا: لا..

دخل أحد المقاتلين.. وكان الرجل المدجج الذي لم يعد مدججا سوى بخوفه قد اختفى خلفنا..

وضوء الكشاف يتأرجح تحت أرجلنا.. ويشيرُ إليه..: هل أصابكم بسوء..

سألنا الشاب وهو يجرّه..

قالت أمي: لا...

وكنت ارتجف.. وأتمنى أن تقول: أه.

وتحامل أبي.. ووقف أخيرا...

وقالَ الشاب: هذا ملجأ خطر... ستجيئون معنا..

ولمحَ الرجلَ ذا الأبناء.. متصلبا في النصف المعتم يحتضن صغيرته..

فانحنى باتجاهه.. تناول الصغير... وناوله لأحد الشباب في الخارج.. وحين هَمَّ بأخذ الصغيرة، حين لامسها.. أحس بدمها وبعصارات جسمها التي كانت تدفقت ولم تجف..

صرخ: ميتة.

قال الرجل ذو الأبناء: نائمة..

: هل قتلوها؟!

صمتنا..

وقال أبي: قتلها القصف..

وبدأنا نبكي من جديد.. وجدنا أخيراً القوة كي نبكي.. ولم تعد أعيننا جافة.. أو شفاهنا.. أو دمنا..

* * *

وبدأنا نخرج.. وساعة الرمل المرتبكة تواصل تدفقها الفوضوي تحت نعالنا، وتتكوم هناك وتعلو في الملجأ.

وقال الصغير في الخارج: أختي يا با.. بعد أن رأى يديه فارغتين منها..

قال: انها نائمة.. سنعود إليها صباحاً..

تَفلَّت الصغير من يد الشاب.. وانطلق باتجاه الملجأ فدفعتْ قدماه مزيداً من التراب إلى داخل الملجأ.. وتساقطت بعضُ الأحجار الصغيرة: سأبقى عندها..

وارتبك الشباب.. وحدقوا في وجوه المجموعة.. ولم يقولوا شيئاً..

* * *

سنرتبك دائماً كلما مررنا من هناك.

* * *

وسأحس بالهوَّة تتسع، وتزداد عُمقاً..

وستقول أُمي: نحن لسنا خراف العيد..

وستكمل جملتَها بعد سنوات..

: خَلِّفْ أربعة أولاد، وانتظر أن يبلغ البِكْرُ الخامسةَ أو السادسةَ، قبل دخوله المدرسة يعني.. وانظر ما الذي سيحدث: كلٌّ يسمننا لعيد الآخر.

* * *

أختاي الصغيرتان، قالتا لأبي بإصرار: انهن لن يقبلن بأكل لحم اختهن.

وكانت أختهن ذات عينين عشبيتين.. ولم أكن أحسِ مثلهنَّ بأنها أختي..

قالت الصغرى: أطعمناها العشب بأيدينا لتصبح عيناها خضراء..

وقالت الكبرى: هذه عاشت بيننا، ونامت معنا.. وأكلت وشربت من بيتنا.. وحين نركض تركض معنا.. وتخاف حين نخاف.. لن نأكل من لحمها.

وقالَ أبي: نحنُ اشتريناها لنذبحها.. لا لنؤآخيها!

فبكت الصغيرتان: لن تذبح أُختنا.

واحتار أبي.. كان العيد يقترب.

* * *

وقالتْ المراةُ التي رفضتْ أن تأخذ حصتها من موزها.. الموز الذي قالت لنا انها حصلتْ عليه بالواسطة.. قالت وهي تحدق في الصغار الذين كانوا يتراكضون في ممر الطائرة..

: منذُ سكنتُ هناك..

ولم نسألها أين..

: منذ لا أدري.. منذ فلسطين.. كان يأتي رجل حوله عربات.. عربات طويلة.. يدور في المخيم.. ويدور.. ثم يتوقف موكبه.. ينزلُ من العربة.. عربته السوداء.. وحوله الجنود.. حرسه.. ويشير إلى أحد الأطفال.. فيركضون خلْفه.. يأتون به.. يقف الطفل أمامه.. يبتسم له

الرجل.. الرجل الذي يأتي كل عدة سنوات.. وأحياناً أقل.. يتحسس رقبة الطفل.. ظهره.. ثم يمسكه من قبة قميصه.. يرفعه عن الأرض قليلاً.. ينزله.. ويطلب منه أن يذهب.. ويشير إلى طفل آخر.. يندفع خلفه الجنود.. يهرب.. يدركونه هناك في زقاق.. من تلك الأزقة.. يحملونه.. هكذا كيفما اتفق.. يتفقده.. يجسه كما جس الأول.. ثم يتركه ـ تعرفون.. تماماً كما يحدث مع القطيع ـ ينطلق الطفل ويختفي..

ويغيب الرجل...

وفي صبيحة اليوم التالي تبدأ المذبحة.. يذبحونهم دون أن يسموا عليهم.

* * *

وقال الآخر: لا فرق.. الذبح ذبح.. إن سموا علينا أو لم يسمّوا.

وقلتْ له لا تبتعد كثيراً.. نحن وقعنا.. ولم يُسمِّ علينا أحد..

وقلت لسائق الحافلة المتوقفة: متى تتحرك..

قال: شوي..

وسألته عن الأجرة فقال: اطمئن.. لن تدفعوا شيئاً.

فلم أتحسس جيبي..

قلت له: إننا مدعوان للإحتفال.

قال: أي احتفال؟

قلت: المعجزة الثامنة.. لا.. التاسعة

قال: وهل المعجزات قليلة إلى هذا الحد؟!

وقلت للآخر حين ملتُ عليه: ما في حرارة..

قال: أنا أكاد أنصهر

وقلتْ للسائق: كأنَّ الإحتفال لا يعنيك.

وكان صوتُ المحرك يطحن الوقتَ والهواء.. وظل هو صامتاً..

قلت: نصف هذا الإنجاز، لو تحقق فعلاً لكان الأمر معجزة.. ألا يعنيك الأمر.. ألا تفرح..

قال: يا أخي أنا لن أفرح.. وأنا لن أرقص في الشوارع.. أنت مدعو.. أليس كذلك.

قلت: نعم.

قال: إذن أنت الذي عليه أن يرقص.. أما أنا فتعنيني هذه، وكان يقصد الحافلة.. التي لم تكن حافلةً..

* * *

أفلتَ الآخر من الرصيف فلحقته إلى الرصيف الآخر، وقلت له: أين؟

قال سأسأله.. هل يعنيه شيء هنا..

قلت: من؟

قال: موظف البريد.

قلت: اتركنا من وجع الرأس.. قبل قليل منعتني من الذهاب إليه.

قال: أريد إجابة واحدة.

* * *

هل يعنيك الإحتفال..

صرخ في وجهه.

وكان يتصرف وكأنه نسينا تماماً..

اي احتفال.. أنا يعنيني هذا..

وأشار إلى ما حوله..

قال الآخر: أنتَ لا شيء يعنيك.. ولو كان المكتب يعنيك لتنبهت بأن هذا الهاتف بلا حرارة.

صمتَ الموظف قليلاً.. لم ترتفع حرارته.. مد يده، رفعَ السماعة وزجها في اذن الآخر وقال: أنظر.. أقصد إسمع.. هل توجد حرارة أم لا..

قرَّبتُ أذني من أذن الآخر.. وكان الخط مفتوحا، قابلاً لأي رقم سوى أرقامنا.

قال: ادر القرص بسرعة..

أدرته..

ولم يكن هناك أحد..

سحب موظف البريد الهاتف منا.. حدّق فينا.. أدارَ ظهره..

قلت: لو اتصلنا من هناك قبل السفر..

قال الآخر: لا تجلد نفسك.. إننا نتصل من هنا ولا يسمعوننا.. فكيف كانوا سيجيبون لو هاتفناهم من هناك.

خرجنا.. وكانت مكاتب الشركات صامتة.. ومضاءة.

* * *

لم نكن قد وصلنا الشارع حين صَفَّرَتْ قذيفةُ الهاوتزر.. لم نكن قد وصلنا، حين انفجرت، حين أخذنا الأرض..، وحين وقفنا، حين حدقنا في العتمة خلفنا.. صرخ الرجل ذو الأبناء: قتلوها.

وعاد يركض إلى الملجأ.. إلى الملجأ الذي لم يعد ملجأً.. إلى الحفرة.. راح يحفر بيديه ويصرخ: قتلوها..

كانت الساعة الرملية قد انفجرت.. وهوت..

* * *

قالوا له حين انحنى ليحملها معه.. اطمئن نحن سندفنها.

وحين قال: أُريد أن أعرف قبرَها..

قالوا: لا عليك.. اذهب بابنك الآن.. ضعه عند أي أناس تعرفهم.. وعد.. ستجدنا هنا.. وسندفنها معاً..

* * *

وقال له أبي وهو يشدّه: لم يقتلوها الآن..

وكانت الأرض سوداء.. وليس ثمة باب يؤدي إلى شيء.. قطع الزجاج المحطم تتحطم أكثر تحت أقداعنا.. وأثاث وأبواب لا يعرفُ أحد كيف وصلت هنا وانتشرت، وباب الملجأ.. رائحة لحم محترق، وبارود، كان.

وعاد الليل أكثر حلكة.. وأكثر صمتاً.
والرجل يهذي: قتلوها..
وعبثا يحاول أبي إفهامه.. أنها لم تمت الآن

* * *

وقالت المرأة الجالسة بجانبنا: لن تقومِ القيامة قبل ان يأخذ كل حصته من لحمنا..

وقالت: قلبي على خراف العيد هؤلاء..
قلت لها: هل تعرفين أمي..
فقالت: من أمك.. ولماذا تسألني؟
قلت: دائما كانت تقول: كلوا يا خراف العيد.. وتُقسم أنها تسمننا لهم.. ستقابلينها لا بد..
قالت: الأم تحس بقلبها..

* * *

وكنا نبتعد.. نبتعد في سكون أطبقَ على العتمة.. سكون مضيء بظلامه.. حيث تختفي الطرق والواجهات والأنوار الصغيرة وسيارات التكسي والحافلات. وكنا نسير ولا نسمع وقع أقدامنا.. أثيريين.. نتحدث بلا شفاه.. ولا نرى بعضنا.. حين رنَّ جرسُ هاتفٍ بدا عملاقاً.. أكبر من رنينِ أي هاتف سمعناه، رجَّ الأفق من حولنا.. أحسستُ بيدٍ تهزّني.. التفتُّ لم أرَ شيئا.. ولكنني لمستُ جسماً غامضاً.. قلت: سماعة هاتف!!. وضعتها على أذني.. فجاء الصوت من الطرف الآخر:

حمداً لله على سلامتكما.. أتعبتكما الرحلة.. أولاد.. ضجة.. نساء؟!!

قلت: لا..
وقال الآخر: لا..
التفتُّ للآخر.. حيث صوته.. لم أره، وقلت: انه يسألني
قال: ويسألني..

واكتشفت أن الصوت مسموع بالنسبة له أيضا.
قال: نحن ننتظركما..
قلت: أين؟
وقال الآخر: أين..
قال: ستعرفون المكان.. اطمئنا.. تصرفا كما لو أنكما في بيتكما.. لتكن هذه الليلة لكما..

* * *

بحثت عن الآخر حيث كان.. بأصابعي.. وحاولتُ أن أشدّه باتجاه شركات الطيران.. حيث الضوء.. اصطدمتْ يدي بيده بعد متاهة.. ارتجفت.. خُيّل إلي أنني أقبض على يده المبتورة، يده التي لم تعدْ مبتورة..

أي جنون هذا..؟
ومددت يدي إلى الهوَّة تذكرتها فجأة.. قلت ربما اختفت.. ربما ولكنها كانت أكبر مما كنتُ أتخيل..

* * *

قالت لي وهي تحاول أن تتجنبني ما استطاعت: قد يكون هناك حَمْل؟
وقلت: كيف.. ألم تأخذي احتياطك..؟!!
قالت: أنت تعرف.. كل شيء تم فجأة.. الصواريخ.. من كان يصدق أنك....؟ أقصد...

ولكن إطمئن.. سنجد وسيلة تُخَلِّصنا منه إن كنت لا تريده.

قلت: ليس ثمة ضرورة لأولاد، يُذبَحون هكذا أمام أعين آبائهم ليس ثمة ضرورة لتكرارنا.. تكرار المذبحة فيهم والهزائم.. سيأكلوننا بأسنانهم حين يكتشفون أننا ألقينا بهم هكذا لهذا العالم..

أمي لم تكن تقول ذلك.. كانت تصرخ بي: لم لا تنجبان.. آه...

هل تخاف عليهم من المذابح.. آه.. هل تريد أن تقول لي أنكم قادرون على أن تحبوا أولادكم أكثر مما نحب أولادنا.. آه.. شوف.. إن أفضل ما يمكن أن يفعله الفلسطيني أحياناً.. أن ينجب.. فاهم.

* * *

أما هي.. فقد جلست على حافة السرير. وكنتُ واقفا..

قالت: كما تريد.

وغابت.. عادت صفراء.. وقالتْ اطمئن: لن يذبحه أحد.. لأننا ذبحناه..

وأجهشت: لماذا يذبحه الآخرون.. ما دمنا قادرينَ على ذبحه..

قلتُ لها: أريد علامةً واحدة تدل بوضوح أننا لم نزل على قيد الحياة؟!

فبكت.

* * *

وقالت لي المرأة: حكاية الرجل ذي السيارة السوداء.. تؤرقني.. لو مت، لو لم أرها.. هل ستحدث أيضاً؟!

وقلت له: لقد ملأوا قاعات شركات الطيران بصوره..

قال: مَنْ؟

قلت: هو.. هل يمكن أن تعلق صورك هنا، أو صوري..

قال: ولِمَ لا.. ألم تَنشر الصحف صورنا صباحَ اليوم.. ألم تقل إننا غادرنا للمشاركة في الإحتفال..

قلت: ولكن الصور ـ اعني صوره ـ ليست هناك.. أقصد انه ليس في صوره.. ليس داخل الإطار..

وحاولت أن أشدّه من يده.. يده التي خُيّل إليّ أنّها لم تعد مبتورة.. وكنت خائفا.

* * *

كان يئن بصمت.. غير قادر على فتح عينيه..
قال لي فيما بعد: كنت خائفا من أنيني..
خائفا ان افتح عيني.

وقال: كنت سأسلِّم نفسي لهم ببساطة.. بعد كل هذا العذاب الذي لا يحتمل وحين ابتعدتُ به، وكانت الألوان كلّها قد اختلطت فيه، سألني برعب: أين يدي؟

وانفجرت في جسده قوة مجنونة.. وراح يركض عائداً.. امسكته هناك بين القتلى.. وحملته هذه المرة على كتفي.. ولم أعرف من أين أتتني هذه القوة فجأة.. حين خطرت لي الفكرة تعبت.. أنزلته.. ولم يكن هناك من يجرؤ على إطلاق النار عليه وعلي.. كان ثمة لجان كثيرة قد وصلت.. وسدت بحضورها أحيانا فوهات البنادق.. البنادق التي ما فتئت تحدق في عيون بعضها بعضاً بكراهية شديدة.. في حين اصطفت دبابات ملطخة بالوحل.. اصطفت هادئة مثل أبقار في ظهيرة قائظة، تَجترُّ القتلى.

* * *

قلت: ما داموا يعرفون اننا هنا.. فنحن في أمان..
هز رأسه موافقا، وكنا اقتربنا من عمود كهرباء طويل.

فقال: ولكن الذي يحدث الآن جنون.
وهيء لي أنه لوّح بيده المبتورة في الهواء.
سألت: هل حركت يدك هذه ـ ولم أكن أحب أن أصفها بالمبتورة ـ هل حركت يدك.. أقصد هل لوَّحتَ بها؟

قال: كيف عرفت؟
قلت: أحسست بها..
قال: عادةٌ قديمة.
وسرنا كقتيلين حتى بلغنا الحافة .
فسألني : ولكن كيف رأيتها ؟

* * *

قلت: إنني لم أرها في البداية.. رأيت رمشاً يتحرك..

فأكد لي انني جريء: إن من يحدق في عيون القتلى لا بد سيكون جريئاً..

قلت: إنني كنت أحدِّق في الحفرة.. ولم أكن أعتقد بحال من الأحوال أن عيناً ستُفْتَح.. سترمش وتعود للإنغلاق..

وقلت له: كان يمكن أن أُصدِّق ما قرأته مرة في مجلة عن حركات لا إرادية تصدرُ أحياناً عن الموتى.. ولكنني لم أُصدق.. لم أصدق ببساطة.. لأنك لو سألتني لماذا لقلت لك: إنني رأيت في النظرة شيئاً من الحياة.. لمعان حياة..

قلت له: هذا ما رأيته..

وقال لي: لو غطى رداء قتيل عيني بمحض الصدفة لما استطعت رفعه..

وقال لي: كان هناك ازدحام لا يحتمل.

* * *

: انطلقت السيارة باكراً ، وكان لمحركها أنَّة عويل. دارت في الطرقات، كانت تجمع رزم القتلى.. القتلى الرابضين في البطانيات، بطانيات وكالة الغوث، السوداء.

وسألته عن الأسود الذي تتراكم عليه الألوان، مِنْ ذلك اللون الدموي، إلى ما تنزه الجراح من عصائر صفراء، وخضراء، وبرتقالية، سألته.. ماذا نسميه..

قال لي: لم أكن هناك في جسدي حين كنت في البطانية.. بطانية وكالة الغوث التي استلمناها لنغطي بها أجساد أحيائنا.. لا أشلاء موتانا.

وقال: إن الذي منحَني القدرةَ على الصمود، أنين محرك السيارة، رغم أنني اعتقدت في البداية أن هذا الصوت صوت الملائكة.

وقال: ان الملائكة بلا محركات بالتأكيد.. ولكنني حين سمعتُ

عويل الناس قادماً من كل مكان.. من اللامكان.. وكانت السيارة مزهوَّة بصندوقها المتخم.. اللحمُ يتماوج، تتدحرج أعضاء، جثث، وترتطم بالحديد، فتحتُ عيني.

وفجأة عم الصمت.. وبدأت السيارة تنزلق في هوَّة الكون ناعمةً.. فأغمضتهما.. دخت.. كانت تعرف طريقها.. اختفى العويل، وأحسست بأنها مربوطة بخيوط من النايلون، مثل عرائس الدُّمى.. وانها لم تعد حديداً ومحركاً.. أصبحت أثيريه.. وتصاعد هذا الحس في داخلي.. حين رأيت صندوقها يصعد.. ويصعد.. ويصعد.. وانفجرت الضجة ثانية.. صحوت.. لا.. عدت. فعرفت أننا في صندوق سيارة قلاب.. وان ذراعها الأملس، ذراع صندوقها الأملس الوحيد.. يُطوِّح بنا إلى مجرة مجهولة.

صمتَ وبدا لي أنه يستمع إلى صوت ما.. صوت سري.

قلت: مالك؟

لكزني في خصري.. من جهة يده المبتورة.. التفتُّ بسرعة، لم أرها

وأشار إلي بصوت عميق: إش ش... أن أصمتَ، ومرتْ دقائق ثقيلة..

سألني: هل تعرف كلمة يمكن أن نطلقها على ذلك الصوت الذي يصدر عن ارتطام لحمي قتيلين ببعضهما..

قلت: لا...

* * *

وما الإسم الذي يمكن أن نطلقه على الصوت الذي تحدثه الرصاصة وهي تمرُّ في الجسد، أو تلامسه من الخارج وتبتعد.. لها صوتها في الهواء.. ولكن ما آسم صوتها في الناس؟!!

وكانتْ السماء شبكة نارية ينسجها الرصاص المتقاطع حيث وجدناه هناك. جارنا الصغير الذي يُصِّر على استلام «آر بي جي».

: هل تستطيع الرمي بال «أر. بي. جي».

: أستطيع.

: ستتهشم أضلاعك من حَمْلِهِ.. فكيفَ من إطلاق قذيفته..

: طب اعطوني كلشن.. مسدس..

وقالت له أمي: وينك؟

فقالوا: تعرفونه..

قلنا: نعم..

صرخوا: ماذا؟!

كانت أصوات الإنفجارات لا تتوقف.

قلنا: نعم.

قالوا: خذوه معكم.

وقالوا له: حين نحتاجكَ سنأتي إليكَ فوراً.. اطمئن.

وقالَ أبي: المسدس...

تذكره..

* * *

في البناية التي قرر صاحبها على طرف المخيم، أن يحاكي بها ناطحات السحاب.. وكانت بلا أعمدة.. وبلا جسور، بناية كبيرة. عملاق دون هيكل عظمي.. بطوبها المعفَّر، وشبابيكها الصغيرة، التي لم تَعُدْ صغيرة.. التي اتسعت.. الشبابيك التي تنفستْ دخانَ الحرائق وجمعته في الغرف.. والستائر ذات الألوان المتعددة. في آخر المزراب المُنْحَدِر من السطح.. المزراب المبقور في موضعين.. في آخره تماماً.. كان القبو، العجوزان اللذان يسكنانه.. أفسحا المجال لكل من طلب الدخول، بابهما المُغْلَق دائماً.. انفتح. كانا خائفين.. حين دخلنا في عتمتهما.. ثم لم يعودا خائفين.

وسيضحكان.

وسيحمل الرجلُ ابنَه الصغيرَ، ويركض.. وقد أصبحنا قرب الأزقة، يركض. عبرها.. الأزقة.. ولم يكن من الممكن أن يطالَهُ

الـرصـاص، واحتمـالات القذائف القـاتلة.. أقـل هنا أيضـا.. وسط هذه المكعبات.

أفسحت العجوز المكانَ لنا. وكان لها صدرٌ كـوني.. يتدلى حـاملاً ثـوبها إلى مـا تحت خصرهـا.. خصرهـا الذي يحيط بـه حزامٌ هـائل.. الحزام الهائل الذي يندلق صدرها فوقه.

وتساءلت: هل من الممكن أن يكون هذا صدرها؟

ولم يتساءل معي أحد.. وربما تساءلوا..

ولكن أمي كانت تعرفها..

في حين قال أبي: ان زوجها قريبنا..

وكان يناديه: عمّي.

فناديتُ المرأة: عمتي..

وكان زوجها نحيلاً جدا، قصيـرا.. يلملمهُ حـزامٌ جلدي بُنّي.. من أيـام فلسطين... ربما. انحـدرت حطته البيضـاء مُصْفَرَّةً فـوق كتفيـه.. كتفيه اللذين يرفعان القمباز الذي يستـره، كمشجبين متجاورين.. أكثـر مما هما كتفان.

* * *

كنت أهـزُّه.. من كتفـه.. كنت أصـرخ.. وصـرخ جنـدي ابتعـد.. وسحب الأقسام.. وكان الناس يبحثون في المشـهد بعد أيـام.. ويسدُّون أنوفهم..

: إنه حي..

وقال لي: أنت تكذب.. أنت كنت بيننا

قلت: ولماذا أكذب.

قال: لتثبت لي شجاعتك، أنتَ كنت بيننا.. إن رائحـة حياة كـانت تهبُّ قربي.. رائحة مـرتجفة.. وكـان دفءٌ. القتلى يفارقهم دفءُ دمهم.. حين يتأكد دمهم أنهم ماتوا..

وأنت كنت هناك.

ولم أنف أنني كنت هناك. ولكن خارج الحفرة.

* * *

وأبي خرج.. غادرَ القبوَ فوراً.. اكتسبَتْ قـامتُه هيـئة عسكريـة، وأحسست أنه يستعيد ذكـريـاتـه.. ذكـريـات بنـدقيتـه التي لعلعت في فلسطين..

قال: هل تحتاجون شيئا من البيت.. سأذهب لإحضار المسدس..

امي طلبت أشياء كثيرة.. لم تكن هناك..

وعندما قالَ لها: هل يوجد لدينا شيء من هذا؟.

قالت: ربما.. دوِّر

وسألني جارنا الصغير: لديكم مسدس؟

ونسيَ قهره دفعة واحدة.

قلت: آه.. بريتا.

قال: البريتا قوي بس معقد!

ولم أسأله كيف عرفت.. كنتُ أعرف جوابه.

الإذاعة.. إذاعتنا وجهت نداءها، طلبت من كل رجال الميليشيـا.. الإلتحاق بمراقعهم.

وقال جارنا الصغير: أنا كنت ميليشيا.

قال له أبي: أنت كنت شبلاً..

فقال: الشبل ميليشيا..

قال أبي: الشبل شبل.

وقالت إذاعتنا: «يا جماهير أمتنا العربية الخالدة.. ان المذبحة..

وقال لي جارنا الصغير: شو يعني يا جماهير..

قال له أبي: يعني الناس.. الناس العرب في كل مكـان من الخليج إلى المحيط..

وسألني: لماذا لا يردون على ندائنا..

فقلت: لأنهم بعيـدونَ ربما.. لأن إذاعتنـا لا يسمعها إلاّ من كـانَ قريبا منها..

وقال: وما الذي ستفعله الجماهير..

قال أبي: تتظاهر.. تحرق الأرض تحت أقدام زعمائها
وقال جارنا: منذ أيام والإذاعة تطلب منهم أن يحرقوا الأرض.
فقال أبي: ربما ستهب.. ربما ستحرقها..

* * *

عاد أبي.. لمحتُ المسدس عندَ خصره.. ناولَنا أشيـاء كثيرة غيـر ذات فائدة أحضرها من البيت.

وقالت أُمي: ما الذي سأفعله بطنجرة كبيـرة كهذه.. كـل ما لـدينا من طعام لا يملؤها.

وكنا لا نستخدمها إلا إذا جاءنا ضيوف..
ولمحَ جارنا الصغير المسدس فجنَّ، هتف.. أُريد أن أراه.
فقال أبي: المسدس خطر..
قال: أراه فقط..
أخذ أبي نفساً عميقاً ثم سحب المسدس من تحت حزامه..
: ها هو.. استرحت.
: أريد أن ألمسه فقط.. لم أكن أتصور أنه هكذا.
قلت: ألمْ تقل أنك تعرف البريتا.. وأنه معقد..
قال دون أن يرتبك: البريتا الذي أعرفه يختلف عن هذا..

وكانت أُمي تحدق في المسدس خائفـة.. أمي التي اشترطت على أبي حين اشتراه ولم يكن يعرف بـأمر المسـدس سوانـا، انا وهي ـ أن يضع الرصاص في جهة والمسدس في جهة.. حتى لا يعبثه الشيطان.

قال: دعني أحمله.. للحظة..
انتـزع أبي مشط الـرصـاص.. فـأنشـدتْ أعصـاب كـل من في الملجأ..

وقال جارنـا الصغير: لا.. لا داعي لـذلك.. فـأنا ميكـانيكي. ولكن الأمر كان قد تم.

هزَّ رأسه كخبير أسلحة.. ثم أعاده إلى أبي.

قال: مسدس جيد.. جيد فعلاً..

وقال لي أبي: منذ الآن. أنتَ تطعمهم.. وأنا أحميهم.

* * *

وكنت أمرُّ بجانبـها خائفاً.. لم تعد حفرة.. لم تعد ملجأً..

وقـال الرجـل ذو الأبنـاء: إن الطبيب الشـاب أغمي عليـه..وهـو يحاول رد الأمعاء إلى الداخل.. وان الممرضة هي التي خاطت الجرح.. الجرح الذي انفجر من جديد.. حين بدأت الصغيـرة تسعل، حين تـدفق الدم من فمها.. وان الممرضة قالت: ليس لدينا شيء..

وان الهاوتزر أكمل المهمة.

وقلت: كان يمكن أن تَعْجِنَّا القذيفة..

وأحسستُ فجأة بتعب شديد.

* * *

وقلت: أُريد أن أنام

وكان هدير محرك الحافلة يجأر.. وكنا فوقَهُ تماماً..

صـعـدَ رجلٌ إلى الحـافلة فسـألناه فقـال: تذهبـون للحج والنـاس راجعة!!

* * *

اضطـر سـائق التكسي أن ينهض حين وصلنـا إليـه.. ولكنــه لم يتحرك باتجاه الصندوق، الصندوق الذي بقيَ مُغْلَقاً.

قال: ضعوا الحقائبَ هنا. ووضعناها إلى جـانبنا في المقعـدين.. وأخذ مكانَـه خلف المقود، وابتسم من تحت شـاربه الـدقيق، فسطعت أسنـانه في الظـلام. ومرتْ عـربة من الجهـة المقابلـة.. فازدادَ لمعـان أسنانه، للحظة كان كلّ شيء واضحاً تحتَ الضوء إلاّ مصيرنا.. مصيرنا المبهم كالشوارع المظلمة ـ المضاءة التي نخترقها.. دون أن نعرفها.

قال السائق: كنت أعرف أن الحافلة لن تتحرك..وأنكما ستنزلان آخر الأمر للتكسي. كنت أعرف أنكما لن تصبرا..

سألت: ولماذا لا تتحرك الحافلة؟

قال: كيف تتحرك حافلة براكبين أو ثلاثة.. هذا هدر للوقود.

ولم أقل له: ان محرك الحافلة يجأر من ساعات.

قال: الذي كنتُ متأكداً منه أنكما ستنزلان.. وتأتيان اليَّ مُتْعَبَيْن.

ولم أجرؤ أن أقول له: إن سائقي الحافلات متفقون مع سائقي التكسيات. ولكنني سألته.

: النساء اللواتي عبرن الشارع بأطفالهن.. هل ركبن الحافلات أم التكسيات؟

فقال، إنه لا يدري.. وانهن قطعنَ الشارع فقط..

وفجأة أحسست بحفيف أثوابهن السوداء، على الأسفلت الأسود، الأثواب التي تخترق الليلة السوداء..

وقلت للآخر: كنتُ أعتقدُ أن وشَّة ما تملأُ أذنيَّ منذ المطار.. منذ الطائرة.. والإنخفاضات الجوية.. منذ الصعود.. منذ الهبوط. وَهْمٌ.

انا لم أكن أسمع إلا حفيف أثوابهن.

* * *

وقال لي: قلت لك.. ان رائحة حياة كانتْ تهبُّ.. لم تصدقني.

وقلتُ لك.. إنك كنت هناك ولم تصدقني.

وقلتُ لك..

* * *

أعلن السائق غضَبه. انفلتَ بياض أسنانه مُسْفِراً عن التماعةٍ مجنونة.. وأحسست بيديه تفتتان المقود.. ثم طرق «التابلو» أمامه وقال: أنتما سألتماني عن ذلك خمس مرات.

قلت: يا أخي انا سألت مرة.

وقال الآخر: وأنا مرة لأتأكد.

وقال السائق: لا.. أنتما سألتما خمسَ مرات.

وقلت: ليس من المعقول أن تعملَ بين المطار والمدينة، وتجهل أمر الإحتفال بالإنجاز الكبير.

فقال: كل إنجازاتنا كبيرة.

ثم صمتَ.. وقال: لا تسحبني من لساني.. إن سؤالك عن الإحتفال يبدو لي كمن يسأل عن شخص اسمه محمدين في القاهرة!

* * *

قال لي الآخر: لماذا نذهب..

قلت: لنرى بأعيننا أن ثمة شيئاً ما زال حياً..

قال: لقد رفضتَ الدعوةَ أكثر من مرة لزيارة هذه المدينة وكنتَ تقول لي: إنهم طغاة.. أنصاف طغاة.. أرباع...

قلت: الموتُ الذي خلفنا.. الموتُ المُصَوَّب إلى أعناقنا غيَّر كل شيء.. طغاة لا يهم.. أنصاف طغاة لا يَهُم.. نريد معجزتهم..

وقال: علينا أن نأكل الأجنحة التي نحلق بها دائماً.. التي قلنا اننا سنحلق بها..

وقال لي: ليس للطغاة معجزات، ما داموا يدفعوننا إلى ازدراد أجنحتنا.

* * *

قلت: أنت غاضب الآن..

قال: وأنت مضروب على رأسك.

* * *

ضربت على رأسي.. هكذا.. قلت: هل تعتقد أن مسألة التذكرة...؟

لم يتركني أُتم.. كان قد أصبح نزقاً.

: اية تذكرة.

قلت: تذكرة السفر.. هل نسيت أننا لا نملك تذكرة إياب؟

قال: لا.. لم أنسَ

قلت: هل تعتقد أنها مصادفة؟

سأل: ما هي المصادفة.

كان شبه غائب للحظة.

قلت: التذكرة يا أخي.. التذكرة.

قال: لا ادري، ربما تكون مصادفة.. وربما لا تكون.

قال السائق الذي يبدو أنه متابع لحديثنا:

على اية حال، البلاد بلادكم. وتستطيعون البقاء هنا إلى الزمن الذي تريدون. لا أحد سيعترض.. ولن يسألكم أحد الذهاب أو الإستمرار في الإقامة.. هذه البلاد أصبحت الآن بلادكم ما أن وصلتم. وليس لأحد الحق في إخراجكم من هنا.. فاطمئنوا.

وفجأة تحول السائق إلى رجل طيب.

قال: هذا فندق جيد.. تنامون هنا.. وفي الصباح تتصلون بهؤلاء.. ما آسمهم؟

قلت: لجنة المهرجان.

* * *

وكانت الشوارع مضاءة على غير ما رأيت في حياتي.. الحقيبة في يدي.. بنايات عالية تكسرُ العنق إذا ما أصر على متابعتها، سيارات حديثة، وجوه من مختلف الجنسيات. بين لحظة وأخرى كنت أتوقف، أحمل الحقيبة باليد الأخرى.. وحدي أصعد الدرج.. درج أحد الفنادق.. يهز موظف الإستقبال رأسه، أهبط الدرج.. وأصعد آخر.. يهزّ موظفُ استقبال آخر رأسه.. نفس الرأس.

يسألني في النهاية أحدهم: ما مطلبك؟

قلت: غرفة بسرير.

قال: لدي غرفة بآثني عشرَ سريراً

شهقت: ١٢ !!

قال: ١٢، الستَ مُدَرِّسا.

: نعم...

: اطمئن إذن.. سترتاح.. ليلة واحدة لا تضر

أوشكت أن أعتـذر.. سرت خطـوتين.. عدت.. اتفقنـا.. ثم عـدتُ ثانية.

قلت: لم تعطني المفتاح

قال: الغرفة مفتوحة!!.

* * *

عشـر عيون على الأقـل حدقتْ بي.. ردت التحيَّـة بكسل واضـح، الرؤوس فوق المخدات.. محاولةُ نوم.. محاولةُ إغفـاء . عاريـا كنت فوق بـلاط الغرفـة.. الغرفـة الطويلـة كمزارع الـدجاج، حتى قبـل أن أخلع ملابسي.. الغرفة المطلّة على إعـلانات الـروثمان والكـاديلاك، وجنـرال موتورز، والمـالبورو.. والتويوتا.. والمرسيدس... و..

وكنت تعبـا.. وخجولاً.. وللحظـة اكتشفت أن علي خلـعَ مـلابسي للمرة الأولى في حضرة كل هؤلاء الذين لا أعرفهم.

وكانت المروَحةُ تدور.. مروحة عملاقة تتدلّى من السقف.. وتدور.

* * *

قال لي: سَفَر ما في..

قلت: وعمل ما في..

قال: أُعطيك الجواز في حالة واحدة..

قلت: ما هي؟

قال: تغترب.. تذهب إلى الخليج.. تُـدَرِّس.. أنت تعرف إننـا نحب أن تكون بيننا.. ولكن مصلحتك مهمة لنا.. كمواطن يعني..

ولوَّح لي بجواز السفـر.. الجواز الـذي أخرجـه من درج مكتبه. الجواز الذي فرحت أنني رأيته.. وأنه لم يزل على قيد الحياة..

: إذا جئت بعقد العمل.. أسمح لك بالسفر إلى هناك.. هناك فقط.

ولمْ أدرِ انه نفسه الذي منحني هذا العقد، لم أدر، إلى أن رأيته هناك.. بشاربه.. شاربه الأنيق لرجل أمنٍ يحاول أن يبدو عصرياً.

ضحك.. وقال لي: لقد أثبتًّ انك أكثر ذكاء من زميلك «أحمد الصافي»*.

* * *

وكان الجو قد تعكَّر تماماً.. تأخرت الطائرة ساعتين.. وكانت القاعة ممتلئة.. وخشيت ألا تتسع لكل هذه المخلوقات الصغيرة. وتحدثت عن حاجز الصوت.. والأولاد..

فقال لي: انه سمع هذا الكلام من قبل.

وحدثته عن الألوان فقال انه سمع هذا الكلام أيضاً.

وبدا للحظةٍ فاقداً صبرَه.

جلسنا وجلس رجل الأمن في المقعد المحاذي لنا، وحاولَ أن يبدو أنه ليس رجل أمن، فاكتشفنا أنه رجل أمن، وكانت الطائرة في الحقيقة آمنة.

والمضيف كان آمناً.. وقادراً على إدارةِ شؤون هذه الرقعة المُحَلِّقة من الحديد والبشر، حين قال: ان الممنوع ممنوع.

وقلتُ للآخر حين جلسنا: جملته قاطعة..

: لم يقل هذا حرام. قال هذا ممنوع.. هل الممنوع أكثر قوة وقطعاً من الحرام؟..

أطفئت تلكَ الأضواء المُتَعلقة بالأحزمة والتدخين.. وأصبح بإمكان البشر أن يتحركوا.. حملتُ حقيبتي الصغيرة.. ذهبتُ إلى الحمام.. انتبه رجل الأمن. رجل الأمن الذي يحاول أن يبدو لي أنه ليس رجل أمن.

---

* أحمد الصافي: بطل رواية «عَوْء» للمؤلف.

ولم أسأل الآخر: هل يحبون الحرية.. حين يـرتدون لـون السماء، وكان قميص رجل الأمن سماوياً.. مقتطفاً من سماءٍ بلا غيوم..

* * *

بين أن يكشفَ نفسه، أو يترك الأُمورَ تأخـذُ مجراهـا.. أحس بأن عليه أن يقوم.

قلت: لقد أصبحوا يذهبون إلى الحمـامات حسب مـواعيدنـا. ولم أضحك.. لأنني كنت بدأت أخـاف مُقَدَّمـاً، مما يمكن أن تصبح عليـه ضحكتي بعد لحظات.

تباطأتُ في الممر.. وكان الأطفال يشدونني من مـلابسي أحيانـاً، ثم توقفتُ فجأة فاصطدمَ بي..

وقال: إذا سمحت يا أخ.

: فَسَمَحتُ له..، تصوَّر!!

ولكنـه عاد وتـوقف. حين مشيت.. وحين وصلت مؤخرة الطـائرة، حيث يجب علي أن اندسَّ هناك بمؤخرتي.. وهواجسي..

كان يقف بباب الحمام.

فقال لي: تفضل..

وكانَ قلبي يخفق بشدّة.. مما أنا مقدمٌ عليه..

قلت: لا.. أنت سبقتني..

وقال: أبداً.. أنت . أنا تجاوزتكَ في الممر..

ولم يكن بـأي حال قـادراً على الدخـول. وتـركي هكـذا حُـرّاً في الطائرة، فقال: إن لم تدخل أنت. لن أدخل. هذه مسألة مبدأ.

وقلت: وأنا المسألة لديَّ مسألة مبدأ.

وعدنا.. وجلسنا في أماكننا.. دونَ أن ندخـل الحمام.. وأحسست أن راداراته، كلّها، بدأت تعمل دفعة واحدة.

* * *

أما عيونهم فإنها لم تفارقني..

قلت: لو يبتعدون قليلاً بها..

ولم يبتعدوا.

* * *

خلعتُ القميص أولاً.. كنتُ أدرك أن قيمص المنامة طويل، وأنني حينَ أرتديه سيغطي نصفَ ساقي.. ثم بعدها أخلع البنطال.. وللحظةٍ انفجرت ضاحكا.

فارتبكوا..

وتذكرتك بينَ القتلى.. قلت: ما على القتلى حرج.. وكانت أجزاء أثداء، وسيقان، أعناق.. وأعضاء تناسليّة طليقة من نفسها، ومن كل قوانين الحلال والحرام.

دفعتُ الحقيبة تحتَ السرير، دسستُ جواز السفر في جيب المنامة.. كان الجواز أيضاً «ون وي» أتصدق.. كالتذكرة.. هذا ما اكتشفته فيما بعد.

: ماذا كنت أقول.. آه.. دسستُ الجواز في جيبي، كذلك النقود.. واستلقيت.. ولم يعودوا يحدقون بي..

استداروا برؤوسهم هناك بعيداً.. ليس إلى حائط الغرفة.. لا.. أداروا وجوههم إلى حائط كوني.. لم يكن حائط الغرفة أبداً.. وناموا..

* * *

رغم ليلة القذائف تلك.. رغم مطرها الناري المجنون.. ناموا قبل النوم.. قال الرجل العجوز: يريدونَ حسمها الليلة.

وحين تجاوزت الساعة منتصف الليل

قالت العجوز، وكان الصمت قد أطبق علينا.. صمتُنا.. بعد ما قاله عجوزها.. صمتٌ عنيف. لم يقطعه سوى صوت المطر الناري.. ونهي أمي لأختيَّ الصغيرتين عن البكاء. والشجار الذي حدث عندما فقدت صبرها. وقالت: سأتركهم يفعلون بكن ما فعلوه في بطن الصغيرة.

فهبت عاصفة في وجه أمي أطلقتها العجوز.. ولم تصدق أنه يمكن لأم أن تهدد أبناءها هكذا. وكانت بلا أبناء.

ثم هدأت.. ولم تهدأ عاصفة القذائف..

قالت العجوز: لو كانوا يستطيعونَ لفعلوها..

وفهمنا أنها ترد على مسألة الحسم التي أطلقَـها زوجها..

ونمنا..

ولم ننم..

كنا متعبين

أغمضنا عيوننا.. أغمضت عيني.. لكزني جارنا الصغير.. تنبهت

قال: فقط لو كان معي بريتا مثل ذلك الذي مع أبيك.

قلت: وما الذي كنت ستفعله؟.

قال: كنت حسمتها..

قلت: ألست متعباً.. نم..

قال لي: من ينام.. إذا قُتِلنا.. على الأقل.. أريد أن أعرف قاتلي.. يا أخي هذا حقّي..

* * *

وسأل موظف الفندق: غرفة بسرير أم بسريرين

فحمدت الله أن ليس لديه من الغرف ذات الإثني عشر سريراً..

قلنا معاً: غرفتين.

فقال: الجوازات إذا ممكن!!

* * *

وقال لي: الجواز إذا ممكن!!

قلت: أريد أن يبقى جوازي معي..

سأل: لماذا..

قلت: فقط ليبقى معي.. لأنه جواز سفري أنا.

ولم أقل له انني فارقته عدة سنوات قبل أن التقيه ثانية..

فقال: الجواز إذا ممكن!!

ولكزني رجل جهم خَلْفي.. فقد الصبر.. يبـدو أنه أدمَنَ الطـريق الصحراوي منذ عمر..

: اعطه الجواز.. كلنا نعطيه إياه.. كل المدرسين.. كل العاملين...

فقال الموظف الصحراوي: إنتظر هناك.. نتفاهم بعد قليل.

ولم يحدثني إلاّ في الرابعـة مساء. ولكنني لم أكن أسمـح لنفسي أن تفقدَ صبرها.. فهذه الحركات اعتـدتها. قبـل أيام حنطـوني هناك من الثامنة حتى الثانية.. مع نصف سكان البلد في القاعة.

وقَبْلَها.. عشرات المرات.

وكان الجواز في يدي يتصبب عَرَقاً.

* * *

نـاولته إيـاه.. وناولَـهُ الآخر جـوازه.. عبأنـا الورقتين بتفـاصيلنا الدقيقة.

ثم ناولنا مفتاحي الغرفتين.. ولم ينادِ على أحد ليحمـل حقائبنـا.. ولم نتوقع ذلك.

انحشرنا في المصعد الكهربائي.. وكان الـزمن الضروري الـلازم لانطباق الباب ثانيةً قد آنتهى.. حين لمحناها تأتي من هناك مستعجلة.. بسرعة ضغطَ على ذلك الزر الـذي يُبقي البابَ مفتـوحاً، فـأدركتِ البابَ قبل أن يُغلق.. ولمحتُ ابتسامتها.

كنا فرحين ان المصعد لم يفتها.. دخلتْ المصعـد.. وظلتْ تبتسم وابتسمنـا من جـديـد.. لانهـا ظلت تبتسم. لأن أحـداً يبتسم، أحـدهم يمشي. كـان الآخرون يجلسـون باستمـرار.. حتى مـوظف الإستقبـال.. استقبلنا جالساً.

سألها الآخر: أنتِ من هنا؟

هزت رأسها...

وسألت أنتما: من أين؟. فأجبناها.. واتسعت ابتسامتهـا. وحاولتُ

أن أتصـور شكلَ ابتسـامتي.. إلاّ أنني لم أجرؤ على النظـر في المـرآة الصغيرة خلف الآخر.

قالت: الطابق الثالث.

وقال الآخر: ـ وهو يحاول أن يبدو لعوبًا ـ الطابق الثاني..

وقلت: وأنا الطابق الأول.

وابتسمنا ابتسامةً مشتركة. وتحرّك المصعـد.. لكنه ظـلّ يصعد. وقد كنت اكتشفتُ أن الآخر سيراها أكثر مني.. فحزنتُ، إلا أن المصعد بددَ حزني حين لم يتوقف عند طابقي.. الأول، حين ظل يصعد، ويصعـد إلى الطابق الثاني، حتى توقف.

أشرعتْ بابَ المصعدِ اليدُ السريةُ للتكنولوجيا فشهقت الفتاة حين رأت المشـهد.. صعدتْ يداها إلى رأسهـا واحتضنته وقالت: ويلي.. هذا فندق ولاّ خرابة؟!!

قلت: إن المصعد ربما يكون نزلَ بنا إلى القبو.

كانت الجدران مقشرة.. الفوضى منتشرة في كل مكـان، والسجاد منتزعٌ من أماكن مختلفة.

وحاولتُ أن أبدو لطيفا: أحدهم أصرَّ على سلخ جلد الممر.

وقلتُ للآخر فيما بعد: شهقةُ الفتاة زادت الطين بَلَّة.

لمحتُ وجهي في المرآة للحظة.. فبدا لي مُفزعـا.. وقلتُ: لماذا لم تشهق الفتاة حينَ رأتني. وعرفت أنها لم تفعل ذلـك.. لأنها لم تـرني من قبل.. الذي يفزع منك يجب أن يكون قد رآك من قَبل.

* * *

نهضتُ.. اعتذرتُ للمرأة ثانيةً.

فقالت: معلش يا خالتي.

وقلت: لعلها تعتقد أنني مصاب بالإسهال.

فقام رجل الأمن وتبعني.

سرت بطيئا في الممـر.. لم يجرؤ على تجـاوزي.. دخلتُ الحمام..

ولم يكن دخـول الحمام مثـل الخروج منـه. إذا كان رجـل الأمن يعـرف المثل.. فإنه رأى تطبيقه.

حين خرجتُ من الحمام.. فَرَكَ الرجـل عينيه.. ولم يكن يـدلّ عليّ سوى الحقيبة.. خطـا خطوتين، وحـدَّق داخل الحمـام، وحينَ لم يجدني هناك، تأكد أنني أنا الذي خرجت.. فتبعني، وصل إلى مقعدي حدَّق بي، ثم عـاد إلى الحمام.. اختفى لثـوان هنـاك. وكنتُ أراه معجـونـا بقلقـه وخوفه، وبراداراته الداخلية التي استنفرت مرة واحدة.

: هل حَلَق شاربه.. أم أن الشارب كان مستعاراً، هل كان بشـارب حين دخل أم لم يكن.. هل هو نفس الشخص أم غيره؟!!!

فتش المغسلة المعدنية الصغيرة.. بحثا عن شعرةٍ تشيرُ إلى أنها من شاربي.. أمسك بـواحدة، فتـح هويتـه ثم ألقى بها هنـاك. خاف أن تضيع.. بحث عن شعرة أُخرى، لعل الشعرتين تكونان الدليلَ الوحيد في القضية!! ولم يعرف أية قضية.. لم يعرف ما الذي عليه أن يفعله الآن.

* * *

وقف أمام الحمام. سدَّه بجسده. نادى أحد المضيفين. طلبَ منـه شيئا.. ذهب المضيف على عَجل.. ثم عاد وهزَّ رأسـه. لم يجد مـا طلبه منه رجل الأمن. لمحَ مضيفة قادمة.. نظر إلى شعرها. رجل الأمن حـدَّق في شعـرها. وطلب منهـا شيئا.. فَكَّتْ المضيفـة الشبرة الحـريريـة عن شعرها.. ناولته إياها.

قلت: ربما يتذكر الآن مسلسلات «كـوجاك» وهـاواي «وكولـومبو»، ولعلـه يُحب كولـومبو أكثـر من «ماغنـوم».. أكثـر من كـل المسلسـلات البوليسية.

وقلت: ربما أبتاع معطفـا مثل معطفـه.. إلاّ أن ذلك كـان صيفا.. فطلبت شركةُ الطيران من رؤسائه أن يأمروه بنزع المعطف عن جسمـه.. لأنه فضيحة!.

أمسـك بالشبـرة الحريـرية.. ونجـح في إغلاق الفسحـة المؤدية

للحمام.. وعزلِ مسرحِ الجريمة عن أقدام الأطفال والنساء.. وسواهم.

عاد وجلس.. عاد ليحدق بي، بالرجل ذي الشارب اللغز. سمعَ مضيفة تتناقش مع نساء، يتعاركن.. التفتَ خلفه.. كانَ الأطفال قد كشفوا عن مؤخراتهم يريدون أن يعملوها في الممر بعد أن منعتهم المضيفة من دخول الحمام، ولم تكن قادرة على تفسير الأمر..

جاء كبير المضيفين.. وبقية المضيفات.. وجاء قائد الطائرة ومساعدوه.. واهتزتْ الطائرة.. وقعتْ في أكثر من مطب جوي، رجاه قائد الطائرة أن يفك الشبرة الحريرية فليس من المعقول أن تَعُمّ الفوضى كل الطائرة.. من أجل الحمّام. وكانَ عشرات الأطفال جاهزين لبدء التبول والتبرز فوراً.. كل أسلحتهم ذات الطلقات السريعةِ كانت جاهزة..

نهضَ.. فَكَّ الشبرةَ الحريرية.. أعادها للمضيفة التي رفضت بإباء أن تعيدها إلى شعرها.. ورأيته مرتبكا.. كأنه اكتشفَ: كم هي سخيفة.. تلك الفكرة التي خطرت له.

وقلت: لعله يسأل: ربما كانت الشعرتان تمويها. وألقى نظرةً أخيرة في فتحةِ الحَمّام بحثا عن شارب.. أو أثار شارب مزيف.. لم يجد.

* * *

وقلت للآخر: إن مسألة الحمام كانت تؤرقنا.. أقصد حمّامَ الطائرة.. فحين كانت الطائرة تمرّ من فوق المخيم.. صاعدةً من المطار القريب، كنا نتساءل: الذي ينحشرُ فوق.. أين يذهب.

فيقول ولد خبير: إنه يذهب للحمّام.. هناك فتحة.. وكنا نعتقد مثلك تماما في مسألة الغيوم. الحمّام لا يمكن أن يكون فوق.. لأنه يلزمه حفرة.. والذين يسافرون يذهبون للحمّام في المطار قبل الصعود.. وإلاّ فأنهم سَيُبَرِّزون علينا. أو في سراويلهم.

وكان الولد الخبير يقول: ان البرازيتفتت في الهواء قبل وصوله إلى الأرض. ويهزُّ رأسه ويقول: هذا عِلم.

في حين أصرّ آخر: ان هناك برميلاً.. مثل براميل الحمّامات لدينا. ولم يكن سكان المخيم قد أشاعوا بعد فكرة الحفرة الإمتصاصية بشكل واسع.

فنردُّ واثقين: ان الطيار لا يمكن أن يُشْغِلَ نفسه ببراز الناس.

ولكننا أثبتنا أخيراً للولد الخبير أن البراز لا يتفتت، حين صعدنا إلى السطح عند مرور إحدى الطائرات فوقنا، واكتفينا بأن نلقي عليه براز الحَمَام والدجاج.

وكنا نكرر الأمر دون أن يكتشفه.. وظلَّ يسأل إلى أن تأكد أن هناك برميلاً أو ما يشبهه في الطائرة.

إنتفض في وجهنا فجأة وقال: ستدفعون الثمن. أنتم الذين دلقتم البُراز عليّ.

فقلنا له: كيف عرفت.

فقال: كلهم.. أعني الذين ركبوا الطائرات قالوا ان هناك ما يشبه البرميل في الطائرة وان البراز يبقى هناك.. ولا يمكن أن يسقط على الأرض.

وكنا قد توقفنا منذ زمن عن إلقاء أي شيء عليه.. لأن المسألة باتت تقرفنا أيضاً.. لكنّه لم ينس.

فقلنا له: كلامك صحيح الآن؟

فقال: كيف يكون كلامي صحيحاً الآن، ما دام البراز تساقط علي طوال سنة واكثر.

فقلنا: ان البرميل اخترعوه حديثاً.. وإن طائرات اليوم المحلقة فوق رؤوسنا غير طائرات الأمس.

فقال: كذابون.. لأنني أستطيع أن أحدد لكم التاريخ الدقيق لدخول الطائرات بأنواعها مجال الخدمة.. هذا عِلم.

فنتركه ونبتعد.

* * *

وكانت الفتاة تبتعد في الممر.. وتتركنا حائرين.. لأن المصعد

بقيَ مُصراً، أن الطابق الثاني هو الطابق الثاني و ليس القبو. وان طابق المرأة الثالث، هو الثالث الذي لا يشبه القبو..

وان الطابق الأول غير موجود في محطات المصعد.. رغم أن له زراً واضحاً يمكن أن تضغط عليه مثلما تضغط على بقية الأزرار.

* * *

قلت للموظف: هذا الضغط نوعٌ من القهر.. وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر.. والمروحة تدور دون جدوى..

فقال: إذا لم تُسَلِّم جوازك.. فلن تعمل هنا.

ثم أشار عليَّ أن أذهب إلى المسؤول.. المسؤول الذي رآني وراح يضحك.. ثم هنأني بالسلامة. فعرفت صوته.. عرفت شاربه، شاربه الدقيق، والجهد الذي يبذله لكي يبدو عصرياً. عرفته. لم يكن غير مسؤول الأمن الذي سمح لي بالسفر.. باتجاه واحد «ون وي» يعني.

قلت: مؤامرة.

ولم يسمعني

قال: تفضل..

فتفضلت..

: هل تأكد لك أن نارنا خير من جنات الآخرين.

قلت: يريد أن يأخذ الجواز.

قال: هذه أوامر.. تعليمات.. نحب أن نتأكد أنك لن تفارقنا بغتة.. أنت تعرف.. نحن نحب وداعك.. ان كان لا بُدّ من الوداع.

قلت: انني سأعود.. وإنه لم يعطني الجواز إلاّ لأنه يعرف أنه سيأخذه مني هنا، وان الأمر مدروس.

وسألته وقد أصبحت على وشك الإنفجار: كيف تُفسر وجودك هنا.. وأنت قبل أيام كنت هناك.

فضحك وقال: إنك مناسب لتكون محققاً.

ولكنه أجابني: نحن نتبادل الخبرات مع هذه الدول.. وكلنا عرب.

فقلت: أريد العودة.

فقال: لا عليك.. ستعود. ولكن. اظن أن عليك دفعَ ثمن التذكرة التي أتيت بها إلى هنا، وأن تجد ثمن تذكرة العودة أيضاً.. هل نسيت أنك لا تملك تذكرةَ إياب. ثم عليك أن تجد بديلاً يأخذ مكانك.. فأنت تتركنا الآن في وقت حرج.

وقال: دع الجواز معك.. إذهب هناك وفكِّر. وكان يشير إلى الباب.

* * *

في لقائنا الثاني قال لي: أنتم الفلسطينيون مشكلة ـ متجاوزاً مسألة الجنسية غير الفلسطينية التي أحملها وجواز السفر القابع في درج مكتبه ـ.

قلت: لماذا نحنُ مشكلة.

قال مشكلتنا معكم أن الفلسطيني موجود في المكان الذي هو فيه، والمكان الذي جاء منه والمكان الذي سيذهب إليه.

فأعجبتني عبارته.. وكنت أُسجل دائما أهم ما أسمعه..

فقلت: هل تسمح لي بتسجيل جملتك.

فقال: تفضل.

فتفضلتِ.

أخرجتُ قلما، ولكنني لم أجد ورقة. فمد يده بواحدة من تلك الأوراق المربعة التي توزِّعها الشركات الكبرى كشكل من أشكال الدعاية.

وكتبت أول الجملة. توقفت. ولم أكن خائفا في أي يوم من الأيام من الإستدعاء. خاصة بعد أن تبين لي: ان الباشا ليس باشا، إنما رجل.. رجل فقط.

قلت له: إذا سمحت.. لا أُريد أن أكتب معنى الجملة.. هل تسمح بإعادتها.

فقال: حاضر.

فأعادها كما لو أنه حفظها من زمن.

وشكرته.

سأل: ستستخدمها في كتاباتك؟

قلت: ربما.

هز رأسه بسخرية.. وقال: الآن.. الآن فقط، أستطيع القول إنني دخلت التاريخ.

* * *

ولم يكن دُخول الحمَّام كالخروج منه. هذا ما تأكد لرجل الأمن، رجل الأمن الذي ارتبك، ولم يدرِ كيف يعالج مشكلة بسيطة، مثل أن يحلق رجل شاربَهُ في حمّام الطائرة. قَلَّب في رأسه قائمة الممنوعات، وكل القوانين الأرضية التي حفظها، وكان يطبقها في الجو. ولم يجد بُدّاً من أن يصمت.. أن يراقبني.

لمحته يدعو المضيف.. المضيف الذي أخذ زجاجتي الممنوع.

وقال: هذا ممنوع يعني ممنوع.

أشار له أن يقترب، فاقترب، كبير المضيفين، وحاولَ أن يشرحَ له شيئاً، ثم أشارَ له برأسه أن يبتعد. ماذا سيقول؟.. هل ستهبط الطائرة اضطرارياً بسبب حلق شارب في الأجواء الدولية.

وخطر لي أن أضحك.

* * *

وقالت لي: لا تضحك.. لن أُحبك إذا حلقته.. لن أُحبك أبداً.. وكانت جادة..

وحاولت أن أُفسِّر لها أنها تحلق شعرَها حين تكون غاضبة منّي.. من الأشياء.. ومن العالم.

كنت أعود للبيت.. وأنا على يقين أن شَعرها الذي أحبه.. شعرها

الذي أحببته دائما.. لن يكون هو.. لأنها ألقتْ بذلك الطول الذي أحبه في سلة المهملات.. في صالون حلاقة أي.. صالون..

مرة من تلك المرّات الكثيرة.. تشاجرنا.. وافترقنا.. عاد كل منا إلى البيت من طريق.. ولم تَعُد هي.. لم يعد شعرها.. شعرها الذي قَصَّتْه في أول صالون حلاقة صادفته. وكانت قصته أيضاً قبلها بيومين..

فَجُنَّ جنوني.. وتشاجرنا في شعرها.. ونسينا سببَ شجارنا الذي دعاها إلى ذلك..

وقلت لها: سأحلقُ شاربي..

فغضبت، وقالت: هذا كل ما بقي منك..

ولم تكن تطلق تلك اللسعات المميتة إلّا نادراً..

كانت تُذكِّرني بما كنت عليه.. تسردُ ذلك بفرح.. تسرد الأشجار والغابة.. والطائرات... حتى أظن أنني لم أزل ذلك الرجل.. وتضحك : لو لم تمنحني كل ذلك الفرح لفارقتك.. تلزمني سنوات قبل أن يكفَّ جسدي عن الإرتعاش كلما تذكرتُ تلك الغابة.. تلزمني سنوات طويلة كي أنسى..

ولم أكن أنسى..

ولم ينس رجل الأمن..

قلت: كانت ستسامحني أخيراً.. ولكن رجل الأمن لم يكن مستعداً لذلك.

ورحتُ أطرد الفكرة.. أحاول ابتكار طُرفة في حضرة الجثة..

: ماذا لو اقترب مني وقال لي: فَسِّر لي ما حدث.. ماذا سأقول؟

ورأيته يقترب.. أبعد المرأة وانحنى كقوس.. لا انحنى كجسر.

وقال: لماذا حلقتَ شاربك في الجو.

قلت: لأنكم لا تسمحون لنا بتربيته على الأرض كما يجب.

وضحكت.

استدرتُ للآخر: وقلت له حلوه.. أليس كذلك..

فأشاح بوجهه

وقال رجل الأمن: عليك ملازمة مقعدك حتى نهاية الرحلة.

فقلت: أفرض انني انحشرت؟

قال: لن تغادر مقعدك.. يعني.. لن تغادره. وعاد إلى مكانه - ثم نهض واقترب مني.

قـال: ممكن حقيبتك.

قلت: ممكن.

أخذها واختفى في الحمّام. قلت ماذا لو عادَ بلا شارب.

وحاولت أن أضحك، حينَ تذكرتُ أنه بلا شارب أصلاً.

لم يكن، هناك شيء في الحقيبة سوى آلة الحلاقة.. فأعادها إليّ.

وكرر: الزم مقعدك.

* * *

وظلت المروحة تدور في رأسي.. في سقف جمجمتي، وتطحن دماغي.

قلت للآخر: ولكن كيف وصلَ هناك قَبْلي؟!

قال: ربما بطائرة خاصة.

فقلت: أنت تُضَخِّم الموضوع.. لم يكن المحقق بهذه الأهمية..

قال الآخر: ولا أنت.

قلت: أشكرك.

* * *

سألني الموظف الصحراوي الذي بدا مُتعبا أيضاً: هل حُلَّت مشكلتك؟

قلت: مشكلتنا هي الوحيدة التي لا تحل.

* * *

ولم يعد هناك خبز في القبو

* * *

ولم يسألني الآخر عن شاربي. فهو يعرف انني خسرت كل ما راهنت عليه.. ويعرف انني قلت: علينا أن «نقطعه» أيضاً.. وأحسستُ أنه سيكون المتضرر.. لأنه مجتث عندي من جذوره. في حين حدَّقت المرأة بي وقالت: ما الذي فعلته يا مجنون.. يا خسارة الخبز والموز فيك. هل يحلق الرجل شاربه في هذا العمر؟

* * *

وكانت تقول: إذا حلقت شاربك لن أُحبك.

سأغفر لك كل شيء.. إلّا هذا.

وقلت له: كل هزيمة تلحق بنا.. تجعل الهوّة أكثر إتساعاً.. «كأنه» المستهدف في القصف.

* * *

وقلت للمرأة: إنني لخمته.

وعرفت المقصود فورا. فنسيت حكاية شاربي وضحكت.

إلّا أنها قالت لي: إنك تغيرت.

وبعد لحظة ابتعدت بكتفها القريب مني.. تراجعت عن ضحكتها.. ولم يعد كتفها يلامسني.

واستندت إلى يد المقعد المحاذي للممر.. وصمتت بقية الرحلة.

* * *

وابتعدت الفتاة، ولكن إيقاع خطاها في الممر لم يبتعد. ظل يهبط ويصعد معنا في بحثنا عن ممر.. ممر يقنعنا في النهاية انه ممر الفندق.

وظلت كلماتها تتردد: لقد راسلتُ الإذاعة عندكم، طوال فترة حرب الخليج.

وقالت: إن لسانها يوجعها الآن، لأنها تكلمت كثيراً.

وتوقف المصعد.. ابتعدت.. ولم تعد رائحتها تملأ المكعب المعدني الصغير.. أو ثيابنا.

تشممتُ ذراعي وقلت للآخر: إنها لم تعد موجودة أبداً.

قال: الفتاة..

هززت رأسي. كنعم. وكنتُ خائفاً من فتح فمي ونطـق كلمة أُخرى في حضرته. هو الذي تجاهل مسألة الشارب إلى هذا الحد.

* * *

قلت لها: إن رائحتها لم تفارقني طوال الأسبوع.. وإن ساقيها تشدان على خصري منذ أُسبوع.

وقلت: إن الإحساسَ برائحة الإنسان الخاصة ربما يستمر معنا إلى هذا الحد لأننا نحبه فقط.

قالت: نحبه؟

قلت: نعم.. تسألين وكأنك انتزعت مني اعترافاً؟

وابتعدت دون أن تتكلم: وجاءت بعد يومين.

قلت: أين اختفيت.

قالتْ: لم أختـف.. كنت أفرح.. أفرح فقط.

وأحببت رائحتها هذه المرّة أكثر.

* * *

توقف المصعد.. وخرج الآخر.. وهيء لي أنه يخطو خارج نفسه.. ويبتعد في الممر.

قال: تعرف أين تجدني.

وبقيت وحدي.. هبط المصعد.. وتوقف أخيراً.. اليدُ الالكترونية السرية أشرعتْ بابَهُ من جديد، فأسفر المشهد عن قاعة تنعكس الأضواء على رخامها الأبيض.

قلت: كنت أعرف.. لا يمكن أن يكون هناك زرٌّ مخصص للطابق الأول والمصعد لا يقف في الطابق الأول. لكن الحركة أيقظتني فور خروجي.

: أنا الآن في قاعة الإستقبال ثانية!

لمحني موظف الإستقبال.. لم يتحرك.. لم ينطق بكلمة.. وبدا الأمر بالنسبة لي انه يعرف تماماً ما يجري قبل حدوثه..

عدتُ للمصعد.. وضغطتُ زرَّ الطابق الثاني.. وهناك خرجت.. قلت.. أهبط الدرجات باتجاه الأول، خير لي من صعودها إلى الغرفة.

* * *

مُفزِعا كان المشهد.

كنتَ أشبه بمن يسير في محطة قطار مهجورة منذ زمن، تتدحرج فيها الأشجار البرية الجافة وكثبان الرمال الصغيرة. درتُ مع الممر.. وكان الممر يدور، والحقيبة تدور، والمروحة تدور، وخطى الفتاة في الممر.. وشهقتها تدور.

بحثتُ عن الدرجات التي تهبط للطابق الأول. وصلتُ غرفة الآخر، بدتْ لي صامته، كان قد أغلق الباب، توقفتُ لأسمع حركته، لم أسمع شيئاً.. واصلتُ الدوران، انتفض قلبي حينَ رأيت الدرجات . انحدرت فوقها كشلال صناعي كسول، من تلك التي يقيمونها وسطَ ساحات المدن الجافة. حيث الماء ينزل الدرجات بلا أرجل كالأفاعي. ويصعد من أماكن غير مرئية، كاللصوص الذين يتسلقون البيوت من أنابيبها الخلفية.. أو مزاريبها.

ولم يكن المشهد مختلفاً عن ذلك الذي في الطابق الثاني، ولكن الذي يختلف كانت الرائحة.

ولم تكن رائحة امرأة.. تقول لي: إنها كانت تفرح.. لم تكن تفكر، بل تفرح فقط.

رائحة فقط.. يرفعها الخراب.

* * *

أجتزتُ زقاقين.. وصعدتُ أحد الأسوار التي توصل للبيت، كان ذلك أكثر أمناً من عبور الشارع المواجه المُشرع للفوهات. ولكن المسافة التي كنت أقطعها في ثلاث دقائق، أصبح يلزمها الآن ساعة على الأقل.

وصلتُ.. ولم يكن البيت بيتاً.. كان فتاتاً.. أما الأسوار فكانت قائمة.. لم تقضم القذائف سوى بعض حوافها العالية.. وتعثرت بقطع خشبية عرفت مصدرها. خزانة الملابس، ورأيت بدلة أبي الوحيدة، رفعتها، فأصطدمت أصابعي بخروق أحدثتها الشظايا فيها.

قلت: لو كان أبي يلبسها لمات. وحمدتُ الله أن أبي لم يكن في البدلة عندما قُصفت. وضعتها برفق فوق الخراب. كما لو ان أبي داخلها، سرتُ. وصلتُ برميل الطحين.. أُمي كانت نبيهة دائما.. وتحسب الحساب لكل شيء.

قال أبي: إنه وضعه في الحوش تحتَ الدالية التي عبرَ عليها الصيف، وإنه غطاه ووضع طوبتين فوقه.

لم أرَ الطوبتين. ولم أرَ الغطاء، وشككت أن اللون الأسود هو لونه الذي أعرفه.

وقلتُ للآخر: ثمة أسود غير ذلك الأسود.. أسود كان أسود، ولكنه غير السواد الأول.

وأحسست انني لم أوصل فكرتي.

كان برميل الطحين واقفاً مكانه.. أُضيئت الدنيا.. لم اتحاش الضوء.. تسمَّرتُ مكاني.. ولم يكونوا قادرين على رؤيتي على أية حال.. والمفاجأة ألقت بي بعيداً إلى أمي وهي تواجهني: أين الطحين.

* * *

قلتُ لها: بعته

: وماذا فعلتَ بثمنه..

قلت: ذهبت إلى السينما.

فشدتْ شعرها وتجمَّع أُخوتي.. وحاولوا أن يوقفـوا يديها عند حديهما.. لم يستطيعوا.

وكانت تصرخ: تريدُ أن تميتنا جوعاً.. وحفنت التراب وأهالته على رأسها. ثم مدَّت يدها دونَ وعي إلى وعاء تسخين الماء، كان أسود بفعل دخان الخشب والأحذية القديمة التي كانت تلمّها وتلمّها لتوقد بها النار. وبدأت تمرر يديها بعصبية على الوعاء وتطلو وجهها بالسخام، حتى أصبح مثل وجوه الجنود، الجنود الذين رأيناهم فيما بعد وسأل أحدهم أمي: أين تحبين أن أطعنه.. هنا... أم هنا.. أم هنا..

ولم تتوقف إلى أن شقت ثوبها، فأدركت حجم المصيبة.

* * *

برميل الطحين وقف ميتاً..
برميل الطحين الذي هَرَّبناه.. وهربْنَا به من احتمالات القذائف.
برميل الطحين قُتِل.
الشظايا أخذت حصتها من معدنه الرقيق. والنار أكدت معجزتها في تحويل الطحين إلى فحم، إلى بقايا فحم.. إلى اختزاله وإلقائه هناك في القاع. ليكون أشبه بفطيرة الشيطان. رقيقة وقاسية..

وظلّت قذيفة التنوير فوق رأسي.

قلت لم تنطفىء بالسرعة التي كانت تنطفىء بها عادةً. ظلت ثُرَيَّةُ الحرب هذه معلقة في سقف ليلة الموت. وحين حدقت فيها.. لم يكن هناك نجوم في السماء، كان هناك ضوء مميت.. واثق يزداد التماعا دون توقف. كان أقوى من شمس.. وأحسست بعرقي ينسابُ غزيراً.

* * *

فقال لي وقد غادر مكتَبُه: فَكَّرت.
قلت: فكرت.
وناولته الجواز.

قال: عين العقل

قال الآخر: وما الذي حدث بعد ذلك. «صمتُّ».لا تقل لي إنك اجتزت البحر!

قلت: ألستُ هنا؟

* * *

وقال الآخر: إنه لم يكن قادراً على أن يَعْرَق.

قلتُ: نعم

قال: تعرف أن في ذلك موتي.. هل رأيت قميصَ قتيلٍ مبتلاً بالعرق.

قلت: لا.. لم أكن رأيت قتلى قبلَ تلك الأيام.

قال: بالدمِ نعم.. بالسّواد نعم.. مبتل بالبرد نعم.. الحرارة للأحياء.

وقال: حين عادتْ إليَّ قالت إنه بلا حرارة.. وإنها لم تنسَ احتضاني لها في الشارع وهو يحتضنها.. وإن كل ذلك الزمن الذي مر، كانت تتدفأ خلاله على ضمة يدي الوحيدة.

وقال: إنني صدقتها.. لو كانت تكذب، لكانت أشفقت عليَّ فقط.. لكذبت.. ولكنها لا تجرؤ هنا أن تكذب دون أن تندس في نصف حضني. كان امتحانها ماثلاً. وكنتُ انتظرتها. أتعرف.. كنتُ متأكداً أن هذه اليد التي قاومت بردَ ليلتين بين عشرات القتلى، وظلت دافئة.. كنت متأكداً إنها تستحق أن تحضن امرأة.

وصمت قليلاً.. ثم قال: سأقول لك شيئاً ولكن لا ترفع حاجبيك.. تعرف انني أكبر منك.. قليلاً.

قلت: أعرف.

قال: ربما لم تكن تخطر لك مثل هذه الخواطر في ذلك الزمن.

قلت: أية خواطر؟

قال: المتعلقة بالنساء!!

ابتسمت.

قال: لقد وعدتُ يديَّ ان خرجتا سالمتين بامرأة.. الصحيح.. لقد وعدت كل شيء فيّ بامرأة.

وضحك فجأة وقال: ان يدي أكلت حصةَ أختها.

ثم صمت وقال: أتعرف.. لكنني خدعتها

سألت: المرأة..

قال: لا.. لا.. يدي هذه.

سألت: كيف؟

قال: لأنني لم أفقد يوما حسي بيدي المبتورة.

وقلت: إنني أحببتها

قال: يدي المَبتورة أم الأخرى.

قلت: تلك الصبية التي هبطنا تلالهم من نارنا العالية، ونشرنا خنادقنا فيها. كانت تتسلقني كما تتسلق جبلاً.. كأنها كانت تعوِّض عن كل تلك الفترة التي ابتعدت فيها عن المكان.

* * *

سمعتُ خطواتها خلفي.. ودون أن التفت، قلت امرأة. مهرة.. حاذتني.. وكان الطريق ضيقاً في الغابة الصغيرة.. واصطدمتْ بسلاحي.. اهتز كتفي..

اعتذرتُ..

قالت: أنا التي عليها أن تعتذر.. وقالتْ.. الجبل لا يعتذر

فأحببتها. مشينا..

قالت: إنها تركت شوارعَ الموت خلفها، حين لم تعد تعرف مَنْ سيقوم بقتلِ مَنْ في اللحظة التالية. قالت إن المسألة مربكة، لأن من حق القتيل أن يعرف قاتله على الأقل.

قلت لها: إنك كجارنا الصغير.. وحدثتها عنه فأحبته..

وقالت: إن خلط الأوراق الذي يحدث، جعل كل شيء أسود في عينيها..

وقلت للآخر: لعلها اكتشفت تركيبة السواد قبلك وقبلي.

وقـالت: هنا على الأقـل تعرف أن المـوت يـأتيـك من فـوق.. من الطائرات الإسرائيلية.. وصمتتْ.

قلت: ما لكِ؟

قالت: إن فوق هذا لا يعطي سوى الموت، حتى حين ترفع أُمي يديها بالدعاء إلى السماء.

وضحكت فجأة.. وظلت تضحك.

قالت: ان أمها كانت ـ مرةً ـ في آخر صلاتها. كانت تـرفع يـديها وتستنـزل الرحمـة على أبنائهـا واحداً واحـداً.. فجـأة هبطت القـذائف واخترقت الطائرات حاجز الصوت. وللحظـة قالت أُمي: إنهـا اعتقدت أن الله غـاضب عليها.. وقـد أرسل غضبـه قبل أن تتـأكـد أن الطـائـرات، طائرات، وأن حاجز الصوت الذي آخْتُرِقَ.. ليس......

ثم قالت: من فوق لا تأتي رحمة.

وظل صوتها يرفُّ داخلي.

* * *

نظرتْ إليَّ.. فوجئتُ، وكـانت هادئـةً.. مستسلمةً لقَـدرٍ غريب.. لا تعرفه.. أنت تستطيع أن تتذكـر.. تستطيع أن تتسـرب إلى ذَاكرة أبيـك وأمك.. وتتخيل شكـلَ القتيل.. أو حـرائق الحروب، أمـا هي فلا.. كـانت هادئة. ربما خافت في البـداية.. ربمـا ابتعدت.. ربمـا اكتشفت الجحيم حولها.. فربضت هادئةً، تتأمل الخراب وقضبـان الحديـد التي نسَّلتـها القذائف من اسمنت السقف، لكنها أحسّـت بي أخيرا.. ورفَّت.

كانت الحمامة وحيدة.. وحائرة.. هل تطير لأن الضوء الجاثم فـوقَ المكـان، اكثـر من شمس.. أقـل من شمس. أم تبقى لأن حـدود هـذه الشمس غامضة..

تـراني.. تتحفز.. تنـدفع بعينيهـا بعيداً بحثـا عن حقيقـة الأفق، وتجفل لانفجارات القذائف.

تذكرتُ الخبزَ الجاف في زاوية السور، الخبز الذي كنا نجمعه للحمام.. كان هناك صلداً كالصخر.

اقتربتُ.. وبحثتُ عنه.. فوجئتُ بالقطة الكبيرة.. القطة التي وضعت أربعة قطط عُمي منذ أيام هناك، كانت تركض دائماً نحوي.. وتتعلق بي.. ولكنّها زارت هذه المرة وقالتْ: مياو.. مياو مياو. لم تقلْ: ميو.. ميو..!!

ورأيت أنيابَها للمرة الأولى.
لعلها لم تعرفني.. كيف؟

كانت تعرفني في الظلام.. حين تتجاوز كل أخوتي النائمين وتندس تحت لحافي.

مجنونة كانت عيناها، وهي وتحاول قضم قطع الخبز الجافة.
أُمي قالت لنا: لا تقسوا على القطط.. وحدثتنا عن الرجل الذي دخلَ الجنة بكلب.

وكنتُ اعتقد طوال طفولتي أنني سأدخل الجنة بالقطط.. عشرات القطط.

أُضيئت الدنيا ثانية بشمس الموت تلك، الباحثة عن قتلى يتحركون.. لمحتْ القطةُ الحمامةَ.. راحتْ تقترب، كم مرة حاولتْ قبل ذلك؟

وفجأة فرَّتْ الحمامةُ ـ كم مرة فرّت الحمامة ثم عادت؟ ـ
طارت.. تابعتها إلى ان اختفت في الليل.. قلت هل تتوه.. هل يمتلك الحمام قدرةَ الطيور المهاجرة، للسفر في الليل؟.

ولم يحيرني ذلك فقط، كانت السماء شبكة نار تضيق فتحاتها وتتسع حسب كل معركة.. والحمامة كانت هناك..

وتساءلت: هل هي الناجية الوحيدة؟.
عادتْ القطة إلى زاوية الخبز الجاف

سرتُ باتجاه الصندوق الذي وضعنا فيه أولادها.. أربعة قطط صغار.. عُمي.. وربما لا تسمع من يدري.. غائبة عن المشهد الخارجي.

زأرت القطة وكأنها خشيت انني سآكل أولادها.

انطفأت شمس الموت.. خفتُ.. هل ستهاجمني؟. من أي اتجاه؟

مشيتُ في عتمتي باتجاه الزاوية.. بحثتُ عن كيس ورقي وضعنا فيه الخبز.. تحسستُ ما تناثر منه.. وحملتُ كل قطعةٍ يابسة قد تكون خبزاً.. حشوتها فيه.. كان شبه ممزقٍ.. سددتُ خروقه بأصابعي..

انفجرتْ شمس أُخرى في سماء المنطقة.. ورأيت الحمامة تعود.. وتهبط في المكان الذي غادرته.. ورأيت القطة الأم تندس في الصندوق.. وكأنها تعبت من كل شيء.

* * *

وكنّا قد تعبنا..

حينَ توافدَ إلى القبوِ أناس آخرون.. وأصبحت الأرضية غير قابلة لاستيعاب كل هذه الأجساد المتراصة.. لكن المرأة العجوز فرِحَت.. ونحن الصغار فوجئنا..

وقالت أُمي: إن المرأة الفلاحة ذات العينين الجميلتين.... يهودية.

ولم نكن سمعناها تتحدث. جارنا الصغير بدا متحفزاً لكل طارىء. وبقية الصغار لم يكفوا عن التحديق في عينيها.. كانت طويلة في الخمسين من عمرها ربما.. ولم يبد عليها أنها متخفية داخل الثوب الفلسطيني المطرز. كانت تلبسه تماما كأمي.. وتمشي دونَ أن تتعثر بأطرافه!

همسَ لي جارنا الصغير: خذ حذرك..

ولم أدرِ ما هي الأسرار التي يمكنُ أن أخاف عليها؟

ولكن المرأة ذات العينين الجميلتين.. التي كانت تستمع إلى

إذاعتنا.. طلبت من جارنا الصغير الذي أصبح مسؤول الإعلام في القبو أن يرفع صوتَ الراديو.. فأستجاب مسحوراً..

هبَّ صوت المذيع: يا جماهير شعبنا العربي.. إن المؤامرة التي ترتكب اليوم..

المرأة ذات العينين الجميلتين رفعت يديها إلى السماء: يا ربي تكسرهم الصهاينة والنِّكْليز والأمركان والعُمَلا.

أطلقت دعوتها تماما كأُمي: أطلقتها بلهجة فلاحية لم نكن نتقنها نحن أولاد المدارس.

وقالت لنا العجوز: ما لكما تنظران إلى المرأة هكذا.. ستأكلانها بعيونكما.

سأل مسؤول الإعلام: هل صحيح انها يهودية؟

قالت العجوز: أه.. يهودية.. لكنّها فلسطينية. يعني منا.

* * *

أُمي قالت لنا فيما بعد : ان اليهود قتلوا زوجها.. حاولوا مرتين أن يقتلوها. وكانت تنجو. لم يقبلوا أن تتزوج واحداً منا. أول مرة حاولوا ليلة العرس.. ولكن الشباب كشفوهم. ثم حاولوا مرةً أخرى وأخرى.. ظلوا يحاولون حتى بعد أن أنجبت ولدين.. وفي النهاية قتلوا زوجها.. وفي عام ٤٨ خرجت معنا.. إنها منا..

واسأل: هل صحيح أن أولادها فدائيّون؟.

فتهز رأسها.. نعم..

ويقول جارنا الصغير، مسؤول الإعلام: عجيب.

ولم نقتنع بالإجابة.. لم نقتنع بكل الإجابات..

وفجأة صرخت أُمي: ألا تتعبون؟!

* * *

وكنتُ تعباً

تعبا من الحقيبة.. ومن الرائحة.. من رائحة الغراء المتعفِّنة الصاعدة من قطع السِّجاد المنتزع من أرضية الممر. أرضية الممر الشبيهة بمحطة قطار مهجورة، وكنت أدور. وكل المراوح تدور. وكان الطلاء يتساقط حولي. مُصدراً أصواتا غامضة تنبىء عن بدء تحلل المكان وانفراطه. لا لم يكن مثل قشور الجروح،لا شيء يتماثل للشفاء. والمربع.. الممر الذي يتشكل مربعا أو مستطيلاً في النهاية يدور ويلقي بأجزاء صغيرة من أضلاعه أمام أبواب الغرف، ليتمكن الناس من دخول أبوابها الضيقة.. ولم يكن هناك أناس، كانت الأبواب فقط، أبواب تُفضي إلى الصمت والعتمة.

وقفتُ أمام الغرفة أخيراً.. تأكدت من رقمها.. وهيء لي أن هذا الخراب الذي أصاب كل التفاصيل. قد يترك لمفتاحي حريَّةَ فتح أية غرفة دون عناء. كل ما حولي كان يتفتت. وكان الباب بُنيًّا إلى درجة السّواد. وحين أمسكتُ بالأكرة كانت دبقة..

استجابت للمفتاح بصعوبة.. دفعتُ الباب ودخلت.

* * *

أي ظلام ذاك.

كانتْ لا تكفّ عن الكلام.. معجب بها أليس كذلك؟ أرني ما لديك من رجولة.. تملصتُ شدَّتني عن السرير.. ألقتني أرضا.. فوق تراب الغرفة الناعم. وكانت الذئاب الصحراوية تعوي في الخارج.. وثمة أفعى تطارد الفئران في السقف.

: أستطيع أن أفهم.. أستطيع أن أرى نظرة عينيكَ الملتهبة وأنت تتابعها..

وكانت تمزق كل شيء..

وكنتُ مستسلما..

: كل شيء يحدث معك يجب أن تتقبله. ما دمت قَبِلْتَ بالقدوم إلى هنا أصلاً.. حيث الصحراء.. والذئاب والأفاعي.. ورائحة النفط....

وكان لحمها يفيض، يفيض على جانبيَّ كتلاً عملاقة..

: تريدها.. أليس كذلك؟

قلت: نعم أريدها..

وكانت ساحرة.. ابنتها.. زنجية نموذجية.. تمشي كرمح.. وتتقدم فيَّ كغابةٍ ما أن أراها. غابة بكل لبوءاتها ونمْراتها وذئباتها.

قلتُ: أريدها.

فقالت: عَبْري.. إن كنت رجلاً!

: جننت أنت تعرف اننا نجن أحيانا.. وقلت جاءت فرصتي.. كَبَحْتُ كلَّ ما في داخلي من نفور أمام كتلها المتدفقة، وحمدتُ الله انني لا أراها، وأن الظلام هو السيد، هل أقول التحدي، ذلك الذي دفعني للإستجابة لاغتصابها لي.. كان اغتصاباً. الآن أقول لك ذلك.

كانت أيامي الأولى هناك.. هل كان الأمر نوعاً من العبث، من الإستسلام.. من الإنتحار بإلقاء النفس وسط التيار، التيار الذي لم يعد هناك مجال للدورانِ حوله. لقد وقعت. وعليَّ الاّ أتردد.. بحثتُ عن فتحةٍ.. وجدتها أخيراً. كانت دبقة.. بصعوبة استجابت.. وخيل إليَّ انني الأول منذ عشرات السنوات، الأول الذي يدخلها..

جُنَّتْ.. أخذتْ ترتجُّ.. وسمعتُ صرير الخشب، خشب الأرضية الترابية، الذي كان سقفاً للمقهى.

وحين نهضتْ.. ربتتْ على كتفي وقالت: قُمْ.. هي الآن لك.

وحاولتُ أن أنهض لم أستطع..

ضحكتْ.. فارتجَّ الليل بظلامه الكثيف.. وخلدتْ الذئاب إلى الصمت.. وسمعت خطاها الثقيلة تهبط الدرجَ وكانت الغرفةُ تهتز. وصرير الخشب يملأ أذنيّ.

* * *

وكنتُ أدفع الباب فيُصدرُ صريراً حاداً. قلت: ماذا لو آندفع سربٌ من الخفافيش في هذه اللحظة. ولم يندفع. ولم يشتعل الضوء. الضوء الذي بحثت عن مفتاحه. دون جدوى. لكن شعاعاً ضعيفاً كان يتسرب من الشارع.. فرحتُ، الغرفة تطلُّ على شيء..

ولكنني تنبهت أن الستــارة ليست فــي وضـــع طبيعــي.. واصلتُ طريقي متخبطا.. وصلتُ إلى مفتاح ضوء يتدلى من عمود خشبيّ عال.. ولم أرَ في ذلك الجزء الذي يُخفي «اللمبة» أكثرَ من سلّةٍ قمامة مقلوبة.

سحبتُ الخيط..

انفجرَ الضوء..

شهقتُ.. أو تراجعتُ للوراء.. لا أدري.

* * *

فكــرتُ أن أعـود.. أن ألقي بنفسي إلى ذراعي المــوت.. هكـذا، كقتيل جاهــز.. جاهــز للمذبحــة منذ زمن.. إلاّ أن أُمي صــرخت: وين يا مجنون.

وأحضرت ماء وبللت الخبز الجاف.. بعـد أن أبعدت قطــع حجارة ومعدن صغيرة كنتُ جمعتها وألقيتها في الكيس الورقي.

لم أقل إن بدلة أبي قُتِلَت.. لم أقل لأمي.. لئلا تتشاءم. لم أقل لها إنني حمدتُ الله لأن أبي لم يكن بداخلها.. ولم أقل لها ان «خُمَّ» الحَمَام الذي كان يطل على العالم من فوق السطح قد أصبح الآن ركاما.. لأنني أعرف أنها ستبكي عنـدها على البيت، أكثــر مما كــانت ستبكي لو قُتــل إثنان منا دفعةً واحدة..

: هذا البيت بنيته من تحت أسنانكم.

لم نفهم ذلك.. حتى ونحن جائعين.

ومرةً قالت: هذه الطوبة ربما تكــون رغيفا، وهــذه ربما تكــون كيلو بندورة، وهذه ربما تكون تفاحة بكيتم عليها.. كل هــذا استللته من تحت أسنانكم.

وقالت: أن تنام جائعاً.. أفضل من أن تنام بلا سقف.

* * *

وكنت أنام جائعــا.. ولم أُحس لحظةً انني تحت سقف. كـل تعبي

الذي تكثّفَ وتسللَ إلى خلاياي. كل نومي.. لم ينسياني أن عدة رجال يطلقون شخيرهم في تلك اللحظة.. شخيرهم الذي بقيتُ أسمعه.

ترددتُ في إشعال الضوء. ماذا لو هبوا فيّ.

: اتركنا ننام يا رجل

ماذا لو تعثرت بشيء.

وظل شخيرهم يتصاعد.. ولم يكن أحدهم هناك.

كانت الغرفة تتلون بالأزرق والأحمر والأخضر والأصفر والبرتقالي والليلكي والأبيض.. أنوار لوحات الإعلانات التي كانت تتعارك في سماء الشارع الصاخب وتتقاطع بعنف في موجات متلاحقة لا تتعب، وغارات لا تهدأ:

ينفلت من أقصى الشارع ضوء لوحة سيارات هوندا.. الهوندا التي كانت صغيرة «كالميني».. لم تكن كبيرة في تلك الأيام.. أو ضوء لوحة سيارات ميتسوبيشي جَلَنت.. أو تويوتا.. أضواء تنطلقُ كسهام سحرية خارجة من حكاية.. مثل برق. يقطعُ الضوء المسافةَ ويشتبك في نقطة محددة ما، تبدو وكأنها أزلية، مع سهم آخر قادم من لوحات روثمان أو سيارات كاديلاك أو جاغوار أو مرسيدس. وثمة نقطة سوداء أحدق فيها الآن وأراها.. قد لا أكون رأيتها لحظتها.. لكنني الآن أراها.. كما لو كنتُ في وسط ذلك الشارع العريض، وانظر إلى سماء النيون تلك من تحت.. حيث لا مجال لأن تخدعني عيناي.

* * *

حيث الستارة مُنْتَزَعة..

منتزعة من طرفها الأيمن حتى المنتصف.. كما لو أن جنيًا صغيراً كان يتمرجح فيها قبل لحظات. وكانَ الضوء يتسرب من الشارع.. ضوءٌ ميت.. متعب.. كأنه سهرَ الليل طوله.

لم أستطع خلع حذائي، كانت أرضية الغرفة ممتلئة بفتات حجارة صغيرة.. حجارة تعطي الستارة المنتزعة من سِكّتِها في الأعلى تموجات

مُفزعة دون أن تـلامسـها.. روح الخـراب التي تشتبك وتنعقـد في نقطة مجهولة. رائحـة السجائـر لم تزل تمـلأ عتمة المـربع الـذي لم استطع اضاءته بالكامل. وكانت آثار دم على الجدران.. دم واضح كدم إنسـان. الذين دخّنوا.. الذين خنقوا كمية الهواء الحزينة في الغـرفة لم يـذبحوا دجاجة هنـا.. ربما ذبحـوا إنسـانـا.. هـل جـاءهم الهـاتف من مكتب الإستقبال:.. اخلوا الغرفة.. وصلَ الزبون. وكانوا عندها يدخنون، كانـوا يقتلـون أحداً مـا ويمتصون دمـه.. أحدهم سَحَقَ بقـةً.. بقة عمـلاقة؟.. أحدهم سحق مئات البقات على الحائط، حيث اختلطَ الأحمر الداكن بمـا تحته، برمادِ السجائر المتطاير ودخانها، بإنعكـاس الضوء عبـر الستارة المنهارة عند الشباك.. فلم يكن الضوء الجانبي كافيا لتبديد السواد.

خطـوتُ باتجـاه النافـذة.. حاولتُ فتحهـا.. لم تستجب، عدتُ إلى البـاب وفتحته.. وفتحتُ الحقيبـة.. أخرجتُ منشفـةً.. وبدأت ألـوّح في الهواء محاولاً طردَ الرائحة: هل الرائحة شبـح.. لا تضحك.. نحن نحس بوجودها، لكننا لا نراها؟

الفتاة لم تترك شبـحَ رائحتها الجميـل فينـا.. تحسستُ ذراعي.. فَرَكْتُهُ.. لم ينطلق شبحُ رائحتها.. فركته مثلما يُفرك المصباح السحري.. انطلقت شهقتها.. والشهقة ليست شبحا.. الشهقة فزع.. فزع ليس إلاّ.

* * *

فزع هزّنا

عنـدما أحـاطوا بنـا من كل الجهـات. عندمـا خرجـوا علينـا من الأشجار. بعد المغيب تماما، كما لو اننا استُدرجنا إلى كمين طَوال أيـام وأيام. طوال تلك الفترة الجميلـة التي أحسسنا فيهـا بحريتنـا. حريتنـا التي كـانت كذبـة، حتى في أدق تفاصيلهـا، حريتنـا التي نهشتها ألفُ عين.

منذ متى تنبهوا.. منذ متى نصبوا شراك محاجِرهم بين الأغصان، وفتحـوا الضوء علينـا كطريـدين. ولماذا انتظـروا إلى هذا الحـد، لماذا انتظروا أن نكون عاريين؟

كنا نحب.. نأوي للداخل.. للدغل، الدغل الذي كان ليِّنا تحت أضلاعنا، ولحمنا، الدغل الذي أوى قلبها الهارب من اختلاط الأوراق، والشوارع السود، الشوارع المزروعة بآلاف الأعين المعدنية الباردة.

كيف كانَ لها أن تلملمَ جسمها الفذَّ، وفتات روحها في لحظة المفاجأة. وكنا طيبين كما خلقتنا الأغنية.. وجمعتنا وزجتنا في خلايا بعضنا.

اشربي أيتها الأرض ماء ينابيعك الصافية.
وأنسي فصولَ الدم.
لماذا يشهرون سلاحهم.
ولماذا يصرخون: تتزوجها أم نُطلق عليك النار.
: طز.. أطلقوا النار
لا تطلقوا النار. فأنا أُحبها.. ولكنني.. ولكنكم لم تكونوا مضطرين لإقتيادي مخفوراً إليها بكل هذه الأسلحة.

قالوا: لا تحرجنا مع أهالي المنطقة.

* * *

ولم يكن قد مرَّ علي الكثير من الوقت هنا.. وصلتُ.. وكانت المعركة قد انتهت. وكي نبقى أقنعناهم: قد يشنّون هجوماً جديداً.. وبعضنا قال سيشنون هجوماً جديداً لا بُد.. وقرر البقاء هناك إلى الأبد.

والذين يحتفظون بجوازاتنا في أدراجهم قالوا لنا ما قالت إذاعتهم، الشباب منتصرون.. وذهابكم عبء عليهم.. أنتم غير متدربين!! قالوا في المرة الأولى، وفي المرّة الثانية قالوا: لا أحد يستطيع اختراق الحصار، وفي الثالثة: الطريق تُقصف.. الطريق التي تؤدي للعاصمة تقصف. وفي الرابعة: لديهم أزمة طعام هناك لا أزمة رجال. وسيقولون لنا اشياء أخرى في المرة الخامسة والسادسة. ثم سيستدعوننا بعد كل معركة..

: كيف تتجرأون على التقدم بطلب للتطوع..

وكانوا يخافون الجماهير.. الجماهير التي هي أنتَ وأنـا وهيَ وهو وهم.

والإذاعـة.. حتى إذاعتنا لم تكف عن نـدائها احرقوا الأرض تحتَ اقدامهم..

ولم تحترق أرض سوى تلك التي تحت أقدامنا.. ولم تحترق سماء إلا تلك التي فوق رؤوسنا..

وستظُلّ علينا البنادق.

* * *

قلت لها: لم نكن مضطرين للزواج لأسباب أمنية.. وأسباب خاصة تتعلق بعلاقة قواعدنا بالقرى.

وكنتُ أتمنى أن تقول: لا..

أن تقول هي: لا..

لأتزوجها فوراً..

ولكنها لم تقل لا.. وتزوجنا

البنادق لم تزل في ظهري وأنا في السرير..

: كنت أُحبها.. هل تفهم.. ولكنهم افسـدوا الأمر.. أفسـدوا الأمر ببنادقهم ومدير المخفر الذي هبطَ التلالَ معهم لاصطيادنا.

ولم نكن أكثـر من اثنين.. عاشقين. قصفتهمـا الطائـراتُ مرتين، وكانا مضطرين للعودةِ إلى غابتهما الصغيرة.. كما يعودان لبيتهما الذي لم يرفعا سقفه.. هاربين من التفاصيل التي تعمل أظافرها في عمـريهما وتزدرد ثوانيه.. كبنادق جائعة.

* * *

وكانوا يقتربون: دمٌ ما انساب عبر المزراب.. وتجمّـع أمام بـوابة القبو على شكل قطرات سوداء.

كانت الدبـابات تقتـرب.. حين قَطَعَت أُمي كلامهـا وقالت يجب أن

يتوافر طعام ما للطفلة. وكان حليبها قد جف.. حليب أُمي.. حليب الطفلة. وكنا نجف أيضاً..

كانت الدبابات تقترب.. حين قرر الرجال قَطْعَ الطريق عليها وتدميرها بعيداً عن البيوت، خوفاً مما خُشِيَتْ به من قذائف..

كانت الدبابات مطمئنة.. بعد يومين من القصف المتواصل.. حين تقدمتْ.. حين راحتْ تهدر في الساحة الواسعة التي كنا نستخدمُ أطرافها كملاعب كُرَة قدم، وتستخدمُ كمزبلة.. كمحرقة.

خرجوا عليها من الأزقة.. أولئك الذين كمنوا طويلاً وتحملوا دويّ القذائف وشظاياها.. وكانوا يعرفون المخيم وما جاورَهُ كراحاتِ أيديهم. لكن بعضهم أوغلَ في غابة الدبابات.. سقطوا في كمين.. وقُطِّعوا.. رموهم على بوابة المخيم مع أحد الجرحى، الجريح الذي قال: كانوا ينادون: لحم.. لحم..

الجريح الذي قال: رأيت كل شيء.. ثم فقدَ لسانه.

وقالت أمي: قد يكون أبي بينهم.. وقلنا ذلك أيضا لأنفسنا، ولم ننطق به.

قالت المرأة ذات العينين الجميلتين: لن أنتظرهم هنا ليذبحونا.. سمعتها العجوز، فالتفتت إلى زوجها.. زوجها الذي فهم كل شيء.. فقال: سأذهب معك..

وخرجا.

ولم يعد هناك من يقول لجارنا الصغير، إسمعنا ما يقوله الآخرون في إذاعاتهم..

ولم يعد يرد: هذه إذاعات مشبوهة.. ألم تسمعوا إذاعتنا كيف تصفها.

وتجمّع أُناس آخرون في القبو.. لهم ملامح قتلى يضمرون.

ولم أقل لأُمي ان بدلة أبي قُتِلَت.. وان البيت قُتِلَ.. وكانَ القبو حالكاً.. ولحلكته حفيف غريب يصطدم بأصواتنا.. فيجعلها قادمة من عالم آخر.

* * *

خطى مرتبكة راحت تتقدم.. يفضحها البلاط.. خطى متعبة.. كأنَّ التعب حوّلها إلى كائنات أثيرية، لا تجد القدرةَ للضغط على أرض صلبة.. فأرتفعت..

وبدا الأمر كما لو ان احدهم قادم للسرقة.. لسرقة شيء ما، وحاولتُ البحث عما يمكن أن يشبه الحقائب.. تذكرتُ أنني لم أرَ حقيبة أي منهم. وكانَ أحدهم يتقدم.. وعينيّ تنفتحان وتراقبان بحذر متحفز، لكنه دخل هناك.. في السرير.

القادم بخطاه الأثيرية، المتسلل إلى غرفتهِ دخلَ السرير، ونام، دون أن يخلعَ ثيابه، وسمعت حذاءَهُ يسقط على الأرض وأدركت أنه دفع الحذاء بالحذاء، أدركت أنه لم يستخدم يديه، يديه اللتين ربما بحث عنهما، فلم يجدهما.. تحت سماء النيون المُعَلَّقة بأقصى حدود الترف.

وتواصل انسيابهم المجروح، وانعكاس أضواء سماء النيون على قاماتهم، كان المشهد سينمائيا.. مأخوذاً بالتصوير البطيء.. وللحظة أحسستُ أن كل الوجوه التي رأيتها في الشارع.. تندس في الأسرَّة الأثني عشر.. وأن الطوابير لا تنتهي.. وأن الغرفة تبتلع وتبتلع، دون توقف. وعرفت أنني في المكان الذي لا يجب أن أكون فيه.. ولكن.. بعد ماذا؟!

* * *

أفضل ما يمكن فعله: أن أسير واطفىء الضوء وأُخفي هذا الفزع الذي يتلبس الموجودات في الليل. أن أخلط الألوان.. الدَم على الجدران.. والستارة بلونها العشبي المريض.. الكراسي الخضراء.. والطاولة المائلة للونِ العفن.. والسرير.. السرير الذي لم يكن أبيض.. فكرتُ بذلك.. ان أنام مع المجهول.. خلعت ملابسي.. اندسست في المنامة.. لكنني لم أجد غطاء.

صرخت: معقول؟!

ولم يسمعني أحد.

ولم يكن هناك مكان يمكن أن أندسَّ فيه وأختفي.. خرجت.. وحين هممتُ بإقفال الباب لم يستجب.. وكنت أعرف أن أبواب الفنادق تُغلق فور ردِّها، ولكن الباب لم يُغْلَق، فحاولتُ إدخالَ المفتاح في الثقب.. ولكن ذلك لم يُجد.. تلفتُّ حولي.. ولم يكن هناك أحد. صمتٌ كامل يفترش الممرات التي انتُزِعَ سجادها وطلاؤها، وفاحت رائحة العفن ثقيلة منها.. تركت الباب مفتوحا، وركضت باتجاه الدرجات التي تُفضي للطابق الثاني.. وكان لخطواتي إيقاع غريب. يتقاطع مع حفيف الأثواب السوداء على شارع المطار.. وهمهمات الصغار الذين يتعلقون بأمهاتهم.

مررتُ بعشراتِ الغرف.. لم يكن هناك أحد..

قلتُ للآخر عندما فتح الباب.. وكانت عيناه حمراوين.. كيفَ أستطعت النومَ بهذه السرعة.

فلم يرد.

وبدا غير راغب في الابتعاد عن الباب الذي يسده بجسده، في حين اختفى كتفه خلف الباب، وأحسست بوجود يده، يده المبتورة، مختفية، لقد لمستها هناك في العتمة.. فلماذا يخفيها هنا؟.

: ما الذي أتى بك؟

قلت: غرفتي

سأل: ما لها؟

قلت: ليست غرفة فندق أبداً..

فقال: إذهب.. ونم !!

قلت: ولكن

سحبني من يدي للداخل فجأة وصرخ: أُنظر.

ورددت صدى صرخته الممرات واحشاء الغرف، فشهقت كالفتاة التي صعدت للطابق الثالث.. وخرجت.

* * *

وقلت له فيما بعد: لو نجحنا في تمرير الممنوع لمرت الليلة ـ حتى هذه الليلة ـ بسلام.

وسألته: كيف يمكن احتمال وضع كهذا دون الممنوع..

والآخر قال لي: ان المضيف يكذب..

حين كنّا نهبط سلم الطائرة.

المضيف الذي قال لنا: إن الممنوع دُلقَ في الحمّام.

كان يكذب

الآخر أكد ذلك مرة أُخرى.

سألته: كيف عرفتَ؟

فقال: سأحدثك فيما بعد.

وعندما حدثني فيما بعد.

قلت: ربما أتلف الممنوع بعد دخولك الحَمّام.

قال: ولكنني ذهبت مرةً أخرى في نهاية الرحلة.. وأنت ذهبت.

قلت: ولكن الماء والبراز والبول، كل ذلك يخفي رائحة أي ممنوع في الدنيا.

فقال: إنه يخفي العالم كلّه هذه الأيام.. لكنه لا يخفي رائحة الممنوع بصورة نهائية. ولو سكبه هناك.. لتأرجحت الطائرة.. لَسَكِرت..

وضحك

* * *

رجل الأمن لم يهدأ له بال، حين نهض الآخر في المرة الأولى، فكَّر بأن يتبعه.. إلا أنه عندما رأى يده المتأرجحة، كُمَّ قميصه المتأرجح، صممَ على مواصلة مراقبتي.

وقلت: ربما يعتقد الآن أن الآخر سيعود بلا شارب أيضا.. وابتسمت، فأحسست بابتسامتي المُفزِعة.. لآن الآخر كان بلا شارب منذ ولدته أُمه.

* * *

فكَّرت بالنزول إلى موظف الإستعلامات. فكَّرت أن أصرخ في وجهه: فندق أم زريبة؟

وتخيلته جالساً لا يلتفت إلي.. ولا يسمع كلامي ويشير بيده إلى الباب: ان اخرج.

أمسكتُ بالمنشفة ووضعتها فوقَ بطني، بعد لحظة اكتشفت أن عليَّ أن أبول. دخلتُ وبلتُ. ولكنني حين سحبت «السيفون» وتدفق الماء ظل يتجمّع ويعلو في الحوض دون أن يُصَرَّف. خفتُ أن يفيض ويغمر كل شيء.. لكنه توقف هناك عند الحافة، عدتُ، ناسياً إغلاق باب الحمام، الحمام الذي هاجمتني رائحته النتنة عند منتصف الليل تقريباً. فأغلقته بعد أن وصلت إليه قاطعاً العتمة.

* * *

وكان علي أن ألوذ بالجدران لإخفاء ظلي، وأن أراوغَ العيون السريَّةَ التي تترصدني وتحدِّقُ بي من كل مكان.

* * *

وكنت أرفعها بين يدي.. على عجل.. وانتزع قطعة القماش الصغيرة تلك.. وأحسُّ أنني طمرتُ الهوَّة للأبد. وكانتْ تنهرني سأعطيك إياه.. ولم أجد تفسيراً لخجلها من تحديقي به في حين أن يدي هناك فوق عشبها الحار الذي يملأ كفي فَرَحًا.

قالت: سأعطيكَ إيّاه.. سأعطيك ثلاثة كلاسين أُخرى وشلحتين.
ورجتني أن أُبعده عن عيني.. وكانت تضحك.
أبعدته.. ورفعتها إلى السماء. وكانت تطير، وكنت أتسلق هوَّتي باتجاهها.

* * *

وكنت أقول لها إنها رائعة.. لولا عادة واحدة لو تستطيع التخلص منها.. عادة تنكد عليَّ عيشتي.

فتسألني بجد..

: ما هي..؟

فأقول: عادتك الشهرية..

* * *

لكنها فجأة إنزلقت.. التمعت عيناها برعب واضح، لم أره فيهما حتى عندما أغارت الطائرات علينا للمرة الأولى.. حين ألقت قذائفها..

يومها ضحكت: هل ستقولُ الإذاعة الإسرائيلية ان الغارة كانت ناجحة.. وأسفرت عن تدمير عاشقين مع كامل أسلحتهما!!

هذه المرة فزعتْ.. هذه المرّة همستْ بِغُلٍّ: هناك من يراقبنا بين الأشجار.

قلت: ربما عصفور.

فقالت: لا تمزح.. هناك من يراقبنا.. وحين نظرت إلى الجهة التي أشارت إليها لم يكن هناك أحد، وكان ذراعاها حول رقبتي، اشتعلت اللحظات بالترقب فنسيت دهشتي بقطعة القماش الصغيرة القادرة على إخفاء كل هذه الأسرار.

هدأنا طويلاً.. قبل أن أرفعها.. قبل أن استدير بها مُحاولاً أن أقلد راقصي الباليه، بسرعة، وعندها رأيته.. كان ممسكا بعضوه.. ويستحلبه.. وقبل أن أنزلها كان قد اختفى.

* * *

ولم يكن ثمة شيء يخفيها غير الكتل المتدفقة من لحم أُمها.. أُمها التي أخرجت سريرها منذ أن استقام الرمح في قامة ابنتها وتدفقت الغابة في صدرها وشفتيها.

وضعت السريرَ كحاجز عسكري.. وأغلقت الباب..باب غرفة ابنتها تماما..

كانت المرأة ذات الكتل المتدفقة قد صعدت إلى غرفتي في الصباح.. ووجدتني هناك على الأرضية الترابية كما تركتني.. كل ما

استطعت عمله، أنني جذبت غطاء عن السرير، السرير الذي عمَّته الفوضى، والقيته على جسدي..

ضحكتْ، صحوتُ، وظلتْ تضحك.. وقالت إنها أبعدتْ السرير، سريرها عن باب غرفة ابنتها.. وإنها كانت تتوقع حضوري.. وعادت وضحكتْ..

قالت: ليلة الأمس يا آستاذ ستلْزِمُكَ غرفتك طوال السنة!

وضحكتْ.

حاولت ان أنهض لم استطع.. وبدات أُفكر.. كم ضلعا في صدري انكسر.

نهضتُ وجلستُ على طرف السرير. هززتُ راسي بعنف. وغشي عيني ظلام كثيف.

وعادتْ لي مساءً وكنتُ كما تركتني.

* * *

لم أعد قادرا على النوم في العتمة، العتمة التي تبددها بخجل اضواءُ السيارات العابرة، عبرَ الستارة المرتبكة.. كغطاءٍ مُنزلق عن جثة في أحد الأقبية.

حين أطلت وتقدمت نحوي..

لم أعرفها.. وعندما اقتربت أكثر.. تأكدت أنني رأيت هذا الوجه..

وظلت تقترب. ولم أبتعد، حتى اصطدمت بي.

لم أعرفها من ملامحها ولا من صوتها، لأن ملامحها كانت غائمة.. وصوتها لم يغادر حنجرتها.. لكن شيئا ما خارج الحواس كلّها جعلني أنطق: فتاة المصعد؟!

ولم أبتعد. حتى عندما راحت يدها تعمل هادئة بالسَّحاب. تَلفَّت حولي.. خفتُ. كان موظف الإستقبال هناك خلف «الكاونتر» الطويل، يغزل الصوف بمهارة واضحة.. منشغلاً.

ألقى نظرةً علينا وواصل عملَهُ بمهارة.. وكنتُ هناكَ.. حيث تعمل

اليدان الناعمتان. اليدان اليقظتان، الرشيقتان كأصابع قائدة أوركسترا، أو عازفة كمان. اليدان اللتان تبحثان هناك بعذوبة، أصابع تُغني، وتنزلق ناعمة كمياه جدول تملأ حفرةً صخرية لا تمتلىء. كنت فَرِحا بمراقبة حركاتها إلى درجة لم أقل لها انك تُضيِّعين وقتك. لم أقل لها ذلك.. خفتُ أن يتنبه موظف الإستقبال. فيشير إلى الباب.

ولم تكن بي رغبة للنوم خارج الفندق. حتى هذا الفندق.
قلت.. دَعْها تكتشف المفاجأة وحدها. هي التي ابتدأت!!
وكنتُ أتساءل: متى ستشهق. وظلت تبحث. وأنا الماكرُ.. صامتٌ.
كان الأمر أشبه بنكتة سمجة لأن الوصول إلى شيء بارز مثله في العادة، لا يحتاج إلى كل هذا الوقت.

رأسها يهتزّ، ووجهها مغموراً بشعرها كان. ولم أر عينيها. ولم يفزعني انها قد تكون بلا عينين.

وفجأة شهقت. شهقت شهقتها التي انتظرتها. شهقة أكثر عمقاً من تلك التي أطلقتها في المصعد عندما أسفر عن خراب الطابق الثاني، شهقة اسلتها من بين فخذي وأطلقت قدميها في برٍّ مجهول لا ينتهي.. وظلت تبتعد فزعةً راكضة في صحراء.. وأنا أراقبها من صالة الفندق. حيث موظف الإستقبال يغزل الصوف. ثم اختفت فجأة كما لو انها سقطت في هوّة.

* * *

وصعد الرجال ببنادقهم إلى السطح، بعد أن عرفوا بمسألة الدم الذي اندفع.. الذي يندفع في المزراب. الدم الذي لم يجف. وحين تسلقوا الجانب البعيد، الذي لا تدركه الدبابات. عندما صعدوا واختفوا فوق السطح. أزَّ رصاص كثيف.. وتدفقَ دم جديد عبر المزراب.

نادى أولئك الذين كانوا عند باب القبو، نادوا كثيراً.. ولكن أحداً لم يُجب وظل الدم يسيل عبر المرزاب.

وقالوا: انتقلوا من هنا، لأَنهم سيدمرون المنطقة.

* * *

ولم ننتقل..

ودمروا المنطقة.. اندفعت جموع كثيرة من بشر فَزِعين، نساء وأطفال وشيوخ، تزاحموا عند بوابة القبو.. القبو الذي لم يعد هناك مكان آمنٌ سواه.. وتجمّعوا في الزوايا. تجمّعوا في كل شيء.. في بعضهم..

وبدا وكأن المذبحة آنتهت. انتشر هدوء غامض، وسكنَ الصمت كل الألسنة.. وزحفَ الليل.

فجأة غيَّرتْ النارُ اتجاهها.. وهبت القذائف والرصاص من الجهة المعاكسة تماما لمسارها الذي كانت تسير فيه طوال الأيام الماضية.. وأصبح القبو بمن فيه في مواجهة الفوهات المجنونة.. لقد احتلوا أحدَ مواقعنا.

غاصت وجوهنا في الأرضية الباردة. وتطاير جدارُ القبو أمام جنون رصاصِ الرشاشات الثقيلة.. وتحتَ أنوفنا كان دمنا حاراً. الرصاص كالبَرَد.. لقد أدركوا أننا هناك.. ولم أعرف لماذا كانوا متأكدين إلى هذا الحد اننا على قيد الحياة، ليواصلوا إطلاق النار بلا توقف.

لم نعرف من مات. كل الألسنة انعقدت.. حتى ألسِنَة الصغار. كأنَّ الرصاص سُكِبَ في حناجرهم، والذي مات لم نعرف متى مات.. أو كيف.. والذي بقي على قيد الحياة كنا نشكّ فيه.

الدم غطى كلَّ شيء.. والمزراب ظل يهدر طَوال الليل. نقطة المراقبة فوق السطح.. كانت تهدرُ عبر المزراب، دون توقف. وفكَّرنا بالعودة للملجأ الأول. الذي لم يعد له وجود.. وانتشر خبر موتنا

* * *

نهضتُ.. وسرتُ في العتمة، أسوأ ما كان يحدثُ لي، حدث، أن انحشر ليلاً. لا أحب التبول في الليل. لا أُحبه.. لا تسألني ان كنت بحثتُ عن السبب، لأنني بحثت، بحثتُ كثيراً، ولم يكن للجن علاقة بالأمر. الجن الذين قد نبول عليهم أثناء مرورهم ليلاً. لأننا لا نراهم.

أمي قالت ذلك، وجدتي، جارتنا، الكل يقولون هذا الكلام، ولكنني لا أعيده.

لا.. لم يكن الأمر خوفا من الجن، الذين قد نبلل ثيابهم ليلاً.. لأنني لا اراهم في النهار..

تقول: انهم لا يخرجون في النهار، ولكن لا بأس، هناك من يشذّ عن القاعدة.. لا بد.. لأسباب قاهرة.. أن «ينحشر» مثلي.. مثلاً.!

إنه البَرْد.. لم أكن أخشى شيئاً، أو أكره شيئاً مثل البَرْد، لا تقل لي ان الأمور تغيَّرت. ومعظم الحماماتِ داخلية الآن.

أنت تعرف.. كان علينا أن نجلس تحت المَطر، وأن نُشرعَ مؤخراتنا، حيث تصفعنا القطراتُ الساقطةُ، وتتقافز فوق لحمنا مثل القَلِيَّة. الصوت. الصوت الذي يصدره المطر عند اصطدامه بالمؤخرة غريب، صوتٌ بارد. لم أُحبه يوماً.. أما فوق السطوح الصفيحيَّة، فيكون بارداً ومفزعاً.. فقد كانَ بإمكانه دائما انتزاعَ سمائنا الصغيرةَ تلك.. وإلقاءها بعيداً.

* * *

تتطاير الألواحُ في السماء. وتخطو خطواتها الوحشية المجنونة الواسعة، من سقفٍ إلى سقف، ترتطم بسطوحنا، تتجاوزها، وترى البشر يركضون خلفها. متتبعين هياجها.. هائجين.

أنت تعرف أهمية السقف في فصل شتاء من تلك الفصول، قديما، قبلَ أن تجف ضروع السماء. أنت تعرف كيف يقودك الصفيح لتتخبطَ في الوحل حافياً. أعمى. وهو يتقافز. وتزرع خطاه الرعبَ في كل السطوح. وأنتَ.. أنتَ تعرف ذلك الرجل الذي كان يركض مع أبنائه للّحاق بالسقف، وكيف أوشك السباق أن ينتهي لصالح الرجل. قبل أن ينعطف اللوح عن مساره، ويقفز للشارع ويجتز عنقه.. ويواصل طيرانَهُ.

* * *

إن أسوأ ما يمكن أن يحدث لي أن أنحشر ليلاً. لقد فكرت، فوجدتُ أننا كنا نُعاني من أجل تبويلة واحدة أكثر مما يعانيه أولاد المدارس هذه الأيام في امتحانات الثانوية العامة. أن تعود إلى لحافك، أن تندس بين أخوتك مبللاً.. أن يكرهوك لأنك شربتَ الشاي قبل النوم، كل ذلك مزعج، مزعج تماماً، رغم أنني أفهمتهم أكثر من مرة، أن تبولي في الخارج أفضل من تبولي عليهم. ولكن من يُصَدّق؟. إن كانوا يفضلون التبولَ عليّ.

أحدهم اقترح أن نبول في فراشنا، في فترات منتظمة.
قلنا: سنموت برداً.
فقال: لا.. قبلَ أن نشعرَ ببرد التبويلة الأولى، ستكون الثانية جاهزة لتدفئة فراشنا.

: ومن كان يُمكنه السهر لتنظيم مسألة معقدة كهذه؟

* * *

دخلتُ الحمام. بحثتُ عن مفتاح الضوء. وحين أضيء.. كان معتماً، وقاعدته ـ كما تركتها ـ ممتلئة عن آخرها. رائحتها تملأ المكان. لم أُفكر طويلاً بلتُ في المغسلة.

وقال لي فيما بعد: انه لم يكن يجرؤ على فعل شيء كهذا، حرمةُ الأموات، لا، لم يكن الأمر مُتعلقا بحُرمةِ الأموات، ما الذي يمكن أن يحدث للميت أسوأ من موته.

وصمتَ فجأة: قال لو كنتُ أعرف أنني حي.. لربما بُلت.
وقلتُ له: بل كنت خائفا
فقال: أنا.. أنا أخاف.. ثمة جسد دافيء كان ملتصقا بظهري طَوال الوقت، في الشارع، تحت عيون الجند، وكانت القطط تَحوم حولنا، ولكنّها تذهب بعيداً تصوَّر: كان قط واحد قادراً أن يقتلنا. تصوَّر: أنت ميت.. أقصد من المفروض أن تكون ميتا، ثم فجأة يأتي أحد القطط ويغرز أنيابه فيك. ستصرخ أم ستصمت؟.. معادلة صعبة.

لا تقل لي أنك ستصمد.. فأنا أتذكر حكايتك تلك، وأعرف أنهم

علقوك بالمروحة من إحدى قدميك. المروحة العملاقة وأعرف كيف تتناثر قيؤك ودمك ولطخ الجدران. ولكنك صرخت في البداية.. هنا هل كنت ستصرخ. أعني تحت أنياب القط. لا أُريدُ إجابة.. فأنا أعرف أن مسألة مثل هذه.. لا يمكن تَصَوّر ردّ الفعل عليها.. إلا إذا كنت داخلها.

* * *

المحقق قال لي: آه.. وحاربت؟!

قلت: تطوعت.. ولكنني لم أُحارب..

قال: عدت بزوجة، الا توجد نساء هنا في البلد.

قلت: كثير..

قال: ماذا تقصد..

قلت: لا شيء..

قال: ما طعم الهزيمة..

قلت: نحنُ لم ننهزم..

قال: تذهبون للحرب ولا تفكرون سوى بمدافعكم الصغيرة. وسألني عمن تطوع؟

فقلت: أنتم تعرفون؟

فقال: نريد أن نعرف منك؟

فقلت: أنتم تعرفون..

فقال: خذوه..

ودارت المروحة

* * *

وقال الآخر: لكن القط أدرك أننا أكثر دفئاً من قَتلى.. فابتعد، أتعرف.. لا تضحك.. سأقول لك شيئاً غريباً.. أنا لا أذكر أن كانت يدي ملتصقة بي في تلك اللحظات.. لا أذكر أين سقطت.

* * *

كنتُ أمشي.. وفجأة خطرَ لي ان احكَّ ذقني..رفعتُ يدي باتجاه تلك النقطة التي صحا نملُها لأحُكَّها، لكن النمل ظل يعمل.

قلت: إما أن النمل أكبر مما يجب، أو أن يدي تاهت، ولكنني لم أُحس أنها ذهبت باتجاه آخر لتَحُكَّه بالطبع. وبعد محاولتين وجدت نفسي مضطرا للإلتفات حيث من الطبيعي أن تكون هناك أصابعي. لم اجدها. قلت يد ماكرة تختفي داخل كُمِّ القميص وتلاعبني، لاحقتها تحت القماش إلاّ أنها لم تكن هناك. فَزِعتُ. قلت: ربما اختفت خلف الظهر، مثلما يفعل الممثلون الذين يقول لنا المخرجون ان أيديهم قُطِعَتْ، لم أجدها. بحثت في البيت . في المطبخ، تحتَ الخزانات والكراسي، رفعتُ لحافي ونظرتُ تحتَهُ.. لم اجدها. ذهبت للحمّام درت حولَ البيت. لم أجدها.. خرجت للشارع وإذا به ممتلىء بالجنود والدبابات ورشاشات ٥٠٠ ومدافع ١٠٦ المحمولة على سيارات اللاندروفر والتويوتا.. قلت لا بد أنني أسقطّها في طريق عودتي للبيت.

توقفتُ عند أحد الجنود سألته. إن كان رأى يدأ مبتورة هنا.. هزَّ رأسه.. فأحسست أنه أخرس.

طرقت حديد دبابة متوقفة هناك قرب أحد المخازن الكبيرة المُدمَّرَة. أطلَّ من البرج ضابطٌ نصف نائم.

صرخ: ماذا تريد.. لماذا تزعجني؟

قلت: يا أخ هل رأيت يدأ ملقاة هنا..

قال: يد!! ما أوصافها؟!

رفعت يدي السليمة.. وقلت: مثل هذه تماماً.

هزَّ رأسه بالنفي.. فابتعدت. لحقني صوته:

: يا أخ.. يا أخ.

قلت: نعم

قال: بإمكانك أن تبحث هناك..

تتبعتُ اتجـاه إصبعـه.. فـإذا بكـوم ضخم من البشـر القتلى المختلطة أعضاؤهم ببعضها.

* * *

وجدنا رؤوسنا أخيراً.. أيدينا.. أرجلنا لننهض.. ولم يعد الرصاص يهب من تلك الجهة.. وقيل لنا أن الشباب استعادوا الموقع.. وتفقدنا بعضنا.. تفقدنا أولئكَ الذين لم ينهضوا.. الذين ظلت أجسادهم في الأرض وحين بدأنا نتحرك.. كنا نخبُّ في دم لم نعرف في البداية أنه دم.. والمذياع.. المذياع كان قد توقف.. فتذكرت مسؤول الإعلام.. جارنا الصغير.. ولم يكن المذياع يفارق حضنه.. قُلت: قُتِل.

ولكنه لم يمت.. كان الدم قد تسرب إلى الجهاز الصغير.. فَشَرِقَ.. اختلطتْ موجاته وتشاجرت أسلاكُهُ في الداخل. صَمَتَ..

أُمي نادت علينا واحداً واحداً.. تفقدتنا.. وكانت هناك أُمهات لم يستطعن تَفَقُّدَ أولادهن.. أولادهن بحثوا عنهن بعويلهم المجروح.

وصرخت أُمي: الصغيرة ماتت..

بكت.. تحسست بأصابعها فستانها الصغير.. بحثاً عن خروق قد يكون الرصاص أحدثها. وبحثنا عن أي أثر لروحها فيها، لم نجد..

ولم اقل لها: ان بدلة ابي قُتِلَت.. لم أقلها..

واقتربت مجموعة من الشباب.. على الصراخ المنطلق من القبو وحاولوا تهدئتنا.. طلبوا من أحيائنا أن يخرجوا.. وانفردوا بمن ماتوا.. - لم يكن هنالك جرحى في الداخل -

أمي حملت طفلتها وهمست: إن ابنتها لم تمت.. وكانت يدها لا تكف عن تلمس الفستان. باحثة عن ممر للموت يقنعها أن الصغيرة طارت منه..

فجأة صمتت. وكما لو لم تكن تلك ابنتها.. ناولتها لأحد المقاتلين... فأخذها..

وجلسنا أمام القبو.. استند جارنا الصغير عليّ..

وقال: اشتقت لأمي..

وخرج..

وعندما عادَ.. كان يحتضن عدة قذائف بيديه الصغيرتين، ويندسُّ في القبو صامتاً.

خفنا.. وتراجع أكثر من واحد باتجاه الحائط.. وأطبقت العجوز على رأسها بكفيها..

وصرخت: بدّك تموتْنا.

فقال: لا تخافي.. ذخيرة الشباب انتهت.. انتهت تقريبا. وقد أحضرتُ هذه القذائف لإصلاحها.. هذه قذائف أطلقوها علينا. سأصلحها وسنطلقها عليهم..

وقالت: اصلحها في الخارج.. قبل أن تنفجر وتقتلنا كلّنا.

فقال: إطمئني.. أنا ميكانيكي.

* * *

وقال الآخر: لقد فاجأونا.. انتصبوا فوق رؤوسنا.. بأسلحتهم.. ويفزعهم.. كانوا قد تمكّنوا من اختراق خطوطنا.. واحتلال قطاع كامل من المخيم..

وصرخَ مسؤولهم: كل هذه القذائف.. ولم يزل مثل هذا العدد في ملجأ واحد!!.. هل تنبعون من الأرض؟!

وتحدثَ مع مسؤوله الأكبر باللاسلكي.. سأله.. لدينا عدة عائلات هنا.. ماذا نفعلُ بها؟

فَرَدَّ مسؤوله: قوموا بما تمليه عليكم قلوبكم...

فتراجعوا خطوات وفتحوا نيران رشاشاتهم علينا..

* * *

كان رأسي على ركبته حين صحوت ليلة الدَّم الكبيرة تلك.. وعندما فتحت عيني قال لي: لا تخف مما ستراه. جارنا الصغير قال: لا تخف مما ستراه.

وقال لي.. إنه رأى كل شيء تدريجيا.. حين كانت الشمس تشرق. كنا مُلَطّخين بدم جاف.. ملابسنا.. وجوهنا.. أيدينا.. كلنا.. ورأيت العجوز تبكي في دخولها وخروجها من القبو.. كانت تغرف الدّم بمجرود

بلاستيكي، الدم الذي تجمع قرب الباب، حيثُ لم يستطع المصرفُ الذي يعبر الحائط تصريفَ الكمية كلّها.. تَخثَّرَ كما لو انه أُصيب بجلطة.

بَدّلنا ملابسنا أُسْرَةً أسرةَ في الداخل. وكنا نحتاج وقوداً فأشعلنا النار بملابسنا التي تشربت الدم.

وفاحت رائحة البشر تملأ المكان.

....

وفي الليل كنا نخشى إغماض أعيننا.

* * *

أمي قالت لي: ان جارنا الصغير لم يزل ساهراً..

فقلت: أعرف.. انه لا ينام.

وأبي قال: انه يعمل كل ما عليه.. دون أن يقف أحدٌ على رأسه.

وكنتُ أعرف ذلك أيضاً.. كان يشعل قنديل الكاز، القنديل الذي صَنَعَ له منقلاً بثلاث أرجل طويلة.. يضع إبريقَ الشاي فوق المنقل، ثم يُدخِلُ القنديل تحته ويبقى ساهراً إلى أن يغلي الماء.. يصنع شايه.. يشربه وينام..

* * *

نحن لم نكن نستطيع شربَ الشاي قبل النوم..

قلت للآخر..

* * *

وقلت: لم أعد قادراً على النوم.

وقال لي: الذي لا ينام يصحو قبل الجميع

وقلت: إن المغسلة تلعبُ دوراً هاماً أحياناً، أكثر من ذلك المرسوم لها.

ولم أقل: انني بحثت طويلاً في الهوَّة.. قبل الوصول إليه. في الماضي.. كانت تصيبني مثل هذه الحالات. أصحو فأجد نفسي في القمة. أذهب للحمام. أحاول توجيهه إلى حوضه الصغير يأبى.. ولم يكونوا قد فكَّروا بعد باختراع المدفع العملاق.

أحاول أن أثنيه بالقوة.. لكنَّه يزدادُ إصرارا.. فأضطر إلى توجيهه إلى الحائط. وأحيانا إلى «البانيو».أعرف أن هذا غير لائق. ولكنني لم أكن قادرا على هدهدته كي ينام. ثم أبول.

لقد بحثت عنه طويلاً حتى وجدته في الضوء المعتم.. الضوء الذي أحببتُ أن يكون معتما ربما، دون أن أدري.

.. كل مرحلة ولها مشكلاتها. عندما كنتُ صغيراً، كان المطر هو الذي يضايقني.. وحتى عدم وجود المطر كان يضايقني.. وعندما أصبح لدينا حمّام.. كنا نخشى الجلوس فوق فتحته.. كنا نخاف الوقوع في الحفرة. وهذا كان يزعج أمي.. فتصرخ مَنْ «عملها» على البلاطة.. كان ذلك يرهقها.. فلا نعترف.. ولم يكن بإمكانها أن تعرفنا من بُرازنا.. لأننا أكلنا من مذود واحد. الآن توصلت إلى نتيجة: قل لي ما هي الصورة التي عليها حمامك... أقل لك من أنت؟.. أقصد اجتماعيا.

مرةً ذهبتُ إلى بيت خالتي.. وكانت لديهم قطعة من الأرض يزرعونها بالبندروة، وحين انحشرت، همستُ في أُذن أمي، ومثل هذا الهمس جرأة كبيرة. كنا نفضل أن نبول على أنفسنا ألف مرة، قبل اقترافها. أُمي همست لخالتي.. فقالت خالتي.. إذهب هناك.. وبُلْ بين «الزَرِّيْعَة».

شهقتُ ، أنت تعرف أن هذه الشهقة جزء أساس من حياتنا، كل ما يحدث لنا الآن.. أقصد دائماً.. يهدف إلى شيء واحد، أن ننساها. حين لا تشهق أمام خراب، تكون قد اعتدته.. وحين تعتاد، يكونون هم قد نجحوا.

شهقت وقلت: «أَشُخْ» على البندورة!!؟
قالت خالتي: آه يا حبةْ عيني «شخ» على البندورة «وشخيت».

في المساء قدموا لنا العشاء. كانت هناك سلطة بندورة، وطبخة بامية، وشيء من هذا القبيل. فلم أكل..

قالوا: تجوع.
قلت: لست جائعاً.
ولم يعرفوا السبب.
ولم أعد لأكل البندورة

* * *

وقال لي الآخر: إن القطط لم تأكلنا، وهذا لا يعني انها «شخت» علينا، القطط بريئة من دمي، ومن دم ذلك الدفء الذي كان ملتصقا بي، قبل أن يلقونا داخل صندوق القلاّب. لقد افتعلت أكثر من دحرجة، حين كان القلاّب ينعطف انعطافات حادة، أو يدخل أحد المطبات، لأصل إلى هناك، إلى ذلك الدفء. ولم أستطع.

كانت مرآةُ السائق تخيفني، مثلَ السماء التي فتحت نارها، ولم أكن استطيع الحكم بدقة: ان كانَ السائق معنا أم معهم. لم أكن قادرا على المغامرة.. على رفع رأسي إلى طرف الصندوق، لأحدق، لأصرخ.. أو لأقفز.. وأنا أسمع محركات الدبابات تهدر. والسائق.. هل كان معنا أم معهم؟ لماذا أُغامر؟ ما دامت السماء نفسها قد حددت موقفها لغير صالحنا.

توقف القلاب.. وتساقطت جثث أُخرى فوقنا.. بيننا.. ولم أعد أرى السماء وهاجمني البرد الذي لم يدم طويلاً.. عدتُ لأُحس بالدفء ثانيةً في الحفرة الكبيرة.. ثم فارقني إلى أن عادت واعتذرت. وهمست: إن البردَ كان هناك في سريرِ زوجها.

قلتُ لها: على هذا كان يجب أن تتجمدي.
وخفتُ أن الامسها.
إلا أنها قالت لي: ان يداً واحدة تكفي أحيانا لضم امرأة..
وخفتُ أن تذوب إذا ما احتضنتُها

* * *

وقلت: الفتاة . لم تعد ثانية.. لم تكذب نفسها.. وقلت: أشياء كثيرة

ازدحمت في رأسي مرة واحدة.. قلت له. ولكن صورة موظف الإستقبال، ظلّت كما هي. جالس خلفَ «الكاونتر» ويغزل الصوف. والفتاة لم تعد ثانية لم تُكِّذبْ نفسَها.. هل خافت السقوط هناك. لا أعرف، نمتُ، لا،غفوتُ قليلاً وانتظرتها، لم تأتِ، صحوتُ، وأبقيتُ عيني مغمضتين..فتحتُ نصف أحداهما.. راقبتُ عودتَها بخبث.. لم تعد.. كنتُ أخشى التحرك، مع أنني فكَّرتُ أكثر من مرة بتحسس شاربي. لم أفعل. وفكَّرت أن أبكى فتذكرتُ أن البكاء لا يأتي بقرار،يأتي البكاء حين نبكي، ولم يكن هناك شيء محدد يمكن أن أبكي عليه.

قلتُ: سيطل الصباح بعد ساعات قليلة.. وسأنتظره.. كان صوت البحر يضربُ الشاطيء فيخترق النافذة المغلقة.. كنت شاهدتُ الأضواء المنعكسةَ على مياهه، عند دخول الفندق، كانت تتموج. قلت: لعل البحرَ يغمض عينيه بخبث أيضاً.. ويراقب. ينتظرني.

وقلت: إذا ما القى عليك أحدهم مَاءً وأنت نائم.. ستصحو: أليس كذلك؟

قال الآخر: أجل.

قلتُ: ولكن ما الذي يمكن أن تُلقيه على وجه البحر ليصحو.

فقال: امرأة. ألم يفعل المصريون القدماء ذلك مع النيل؟

ارتفع صوت الموج.. رحتُ أركض وقد أمسكتُها من يدها.. كانت حافية.. ليس هناك أجمل من امرأة حافية تركض قرب البحر. أركض باحثاً عن فتحة صغيرة. لم أستطع تركها ورائي. كنا وحيدين على الساحل والأسلاك الشائكة تفصلنا عن الموج الكبير. وكان الموج يدعوني.. افلتْنا من مهمتنا وعيون المشاركين في المؤتمر ،مؤتمر تضامن، وركضبنا. شدّتني وقالت: سيأتي الرجل الذي أُحبه غداً!

وقلت لها: إنني أحب البحر. وأنا رجل بلا بحر.

وقالت وهي تتعثر بقدميها والرمل: إنه يشبهك

قلت: لا شيء يشبهني.. لا أحد يشبه أحداً.. وحتى البحر لا يشبه البَحر.. وكنتُ أبحث عن مُشَادَّةٍ.

وعندما حاولتْ أن توقفني، تركت يدها معلقةً في الهواء، وقدميها في الرمل الناعم، وشعرها في الريح.

صرختْ: إنتظرني. وركضتُ.

وكان البحر يحاول الإفلاتَ من ساحلهِ مخترقاً الأسلاك الشائكة، وكنت أحاول إيجاد منفذ إليه.

قلت: ألقي بنفسي على الأسلاك.. ولأكن طائرَ شوك آدميٌّ، لا يستطيع رد البحر الذي يناديه. كنت أُحس أنني موجة أفلتت من جسده.. وأنها ستموت في الرمل إن لم تعد..

وصدري ممتلئاً بالأزرق الليلي كان.

* * *

أتذكُرِ السمكةَ التي اصطدناها مرة.

قال: أية سمكة..

: تلك التي قفزت من كيس البلاستيك الذي كنا نجمع فيه غنائمنا من السمك..

قال: آه.. أذكر.

قلت: أذكر أنك قفزتَ.. حين رأيتها تتلعبط هناك فوقَ الحجارة الصغيرة.. وأنا أمسكتك. كنت تريدَ إعادتها للكيس..

وأنا قلت لك: لقد أخذنا فرصتنا كاملة حين أخرجناها من الماء.. وعليها أن تأخذ فرصتها في العودة إليه ان استطاعت. تعرف. لم أكن أتصور تحت أيَّ ظرف ان بإمكان سمكةٍ صغيرةٍ بحجمها أن تملك من القوة ما يجعلها تقطع مسافةً كبيرة لتعود إلى الماء.

وقال لي: الأهم من كل ذلك.. انها لم تتقافز في اتجاه معاكس للماء..

* * *

فجأة رأيت باب البحر.. ظهرت فتحة في الأسلاك.. عدوتُ باتجاهه.

صرختْ: انتظرني.. لا تدخل الماء.. الماء بارد..

وقالت: ستغرق.

ولم أدرِ كيف عرفت أنني لا أستطيع السباحة.. هل كان بإمكاننا أن نصرخ أن ننادي بأعلى صوتنا على السمكة ونقول لها.. انتبهي ستغرقين؟!

لم يكن ثمة أمر يمكن أن أنفذه في تلك اللحظة.. أن أُطيعَهُ.. سوى أمر البحر.. وكان البحر ممتلئاً بالسفن الخارجة من بيروت..

تعرف: لم أحس أبداً أن تلك السفن التي خرجت من هناك قد رَسَت في مكان.. أي مكان، حتى هذه اللحظة. وقد حاولتُ أن أُحدد مكانها في هذا الإتساع المائي الأسود.. المُتَفَلِّتِ تحت ظلمة الليل..

وصرختْ: توقف.

وقال البحر: تعال

ورحتُ أختفي في الماء.. ولم يتوقف البحرُ عن دعوتي للدخول أكثر وأكثر.

وظلتْ تصرخ: عُدْ. عد.

* * *

فكرتُ بالعودة إلى المرآة، حين تذكرت شاربي، فكرةُ دخولِ الحمّام كانت انتحاراً. عدلتُ، وكنت قد جرحتُ نفسي بسبب ارتجاف يدي.. أنت تعرف ما الذي يعنيه اجتياحُ شارب بشفرة ذات حدّين، حاولتُ أن أُداري الجرح، أن أشيح بوجهي عن كل مَنْ يصادفني. أُمي امسكت بي وقالت: تريد أن ينبت شاربك يا مقصوف.. لا تستعجل الهَمّ.

وقال أبي عندما رآني ناصعا كصحن المنيوم مجلي بصورة مبهرة: والله وصرت زَلَمه.. لكن ما راح أخاويك.

قلت لك: إن حلق الشارب فضحية، فضيحة كبيرة، كيف لاحظوا أنني حلقت شاربي ولم يكن شارباً على أيــة حال، كان زغباً.. يتحسس معناه.

رحتُ أراقبه جيداً، شاربي، وأسحبه شَعرة شعرة، وأنتظر تحوله من اللون الأشقر الفاتح، إلى الأسود بلهفة. لكن أبي لم يعاملني كأخ.. في حين أصرتْ ابنةُ الجيران على ذلك.

* * *

كلّما اقتربت منها.. وفي يدي الرسالة انتفضت مصعوقة وقالت: ابتعد.. سيرانا الناس.

كانت أصغر مني قليلاً.. أُمي تؤكد ذلك.. إلاّ أن رمانتيها الناهدتين تحت فستانها، هما أصل البلاء. كنت أركض لألحقَ بهما.. أتعرف.. من الصعب أن تجاري نهداً يتفتح.. أو يكتمل.

لم تقل لي: أنا لا أحبك.. لا.. لم تقل.

ولكن شوارب الأولاد كانت قد نبتت قبلَ شاربي واسودّت. كأنهم حجزوا دورهم قبلي.. كأنهم سيستقلون الحافلة، ويتركونني هناك على الرصيف.. كأنهم سيستلمون المؤن ولن أستلمه.. لأن الوقتَ انتهى، وكنت أُريد اللحاق بهما، ولكن، كان علي أن أتجاوزهم أولاً.. أن أتجاوز شواربهم.. وأحدق في رمانتيها اللتين لم تتوقفا عند حد، وأصرخ.. كنت أصرخ.. متى سيتوقف نموهما.

* * *

وقال لي: لماذا لا ينمو الساعد المبتور كالشارب، كالشَّعر، كالأظافر، أو يتمدد على الأقل حين نحتاجه.. مثل «ذاك».

وقلت: إحمد ربك..

فقال: على ماذا؟!

قلت: محظوظ من كان يصاب بجرح خطير في طَرَفٍ يمكن بتره.. حين لم يكن هناك سوى الماء والملح لتطهير الجروح. لقد رأيت الناسَ كيف يموتون.

وقال: لقد عشت بينهم.

وقال: ان المسألة لم تزل حتى الآن معقدة.. في ذهني.. لأنني

متأكد انني متُّ حين اندفعت القنبلة بعد الرصاص، وابتلعت الحائط. الحائط لم يتهدم.. الحائط تحوّل إلى غبار.. ذرّاه الإنفجار.. والرصاص مشطَ الهواء ومشطنا.

قد أكون مديناً لك بحياتي.. ولكن، يهيّأ لي أنك لم تقل الحقيقة بصراحة، لم يكن أحد قادراً على اقتراف الجرأة، أمام كل تلك الدبابات، متأكد أنا.. انك كنت بيننا.. لم تكن في لحظة قتْلِنا.. ولكن قد تكون صعدت للصندوق عند توقف السيارة في واحدة من محطات القتلى.. وقد تكون سبقتني للقبر.

قلت: جرأتي لم تكن في تحدي الدبابات والجندي الذي سحبَ الأقسام.. الجنود الذين تراكضوا.. السلاحَ الذي قرقع.. الجرأة التي لم أصدقها حتى الآن: كيف استطعت أن أدوس على لحم بشري.. على ذراع.. وجه.. صدر.. عانة.

أحياناً استعيد ذلك الإحساس فلا اجرؤ على النزول من السرير. تفهم؟

لم أفكر ساعتها بشيء.. لم أفكر كيف سيلتوي ذراع، أو يكسرُ تحتَ قدميَّ، الآن.. ومنذ ذلك اليوم.. استرجع بطريقة غريبةٍ ما حدث، وأحس بالوجه كيفَ يمكن أن يكون تحتَ القَدَم.. بالبطن.. بتعثري بطرف الذقن.. وأنا أطأ العنق، ولم أكن أبحث عنك.. كانت أمي قد قالت لي: إذهب وابحث عن أبيك.. قيل قد يكون في القبر الجماعي.. فذهبت.. نعم لم أكن أبحث عنك ولكنني وجدتك. ولم يكن أبي هناك لأعود به.. فعدتُ بك.. وأمي.. أمي كانت تريدني أن أعود بكل ما ترسلني من أجله.. وكان ذلك صعباً.. حتى بعد أن ماتت الصغيرة.. أمي قالت لي: إذهب.. وابحث عن بعض الحليب لأختك.. أختي التي ماتت.. ثم أجهشت بالبكاء.. أمي. وقالت إبحث عن أي شيء..

* * *

وذهبتُ . للحظةٍ احسست أن أمي تريد التخلص منّي.. لأن

ذلك يكفل توزيع حصتي على الصغار، أنت لا تعرف ما الذي يمكن أن يحدث داخل الإنسان في لحظات كهذه، وكان هناك من يَضْمُر وهناك من يتقيأ.. وهناك من يعاني من إسهال شديد.. كـأنَّ يدين مجنونتين تعتصرانه. وهناك من جحظت عيناه. وانتفخ بطنه.. وأمي. أمي التي قالت إنها عاشت بما فيه الكفاية.. وان على الصغار أن يأخذوا حصتهم من الدنيا.. من يدري انكانت تعتبرني من الكبار أم من الصغار.. حين قالت لي: إذهب وأبحث عن أيِّ شيء.. أي شيء يؤكَل.

* * *

أشار إليَّ أحد الرجال من خندقه: أن ابتعد.

فابتعدتُ..

قال: إن المنطقة مكشوفة.. وانهم تقدموا ونبهني لوجود قناصين، تجاوزت عدداً من الأسوار، عبرتُ أحواش بيوتٍ مهجورة، أو مهدَّمةٍ، ولم يكن هناك سوى الفوضى.. وجفاف التماعِ الأواني المتطايرة.. وفتات الزجاج. لم أترك لهم فرصة ليروا جسدي.. حيث كان الرصاص يئز قريباً.،. والقذائفُ تتساقط بعيداً.. ربما قرب المستشفى.

كان اجتياز الشارع الأخير هو المشكلة، بعد أن دُمِّرَت المخازن، مخازن التموين، تلك التي كانت خلف الملجأ.. الملجأ القبر.

وعدت...

* * *

كنت على وشك الغرق. حُمّى عابرة ضربت أطرافي، فأرتجفتُ. وكانت تشدني نحوها.. كنت ضائعاً.. ضائعاً تماماً، وللحظةٍ اختفى صوت البحر، وظل صوتُ ارتطامِ قدميها بالرملِ يرشّني بغياب عجيب، ولم أكن أسمع صوتها تماما. كانت تهزّني، وتناديني، ولم أكن أرد، ربما كانت تسأل، وتعيد السؤال، ولم أكن هناك.

وتنبهت على يدها تطوِّق كتفي، عند بوابة الشاليه، وتنبهت على يدها تدخل جيوبي وتبحث.

* * *

وكنّا نثقب جيوبنا، ثم نُخرجه من الفتحة الصغيرة، نُلطِّخُ أيدينا بالسَّخام أو الطين، وننادي مستغيثين.. حيث يأتي الأولاد، فنطلب منهم بأدب جمٍّ أن يناولونا مناديلنا من داخل الجيوب، وندير جنوبنا التي يقبع فيها الفخ اللحميّ القاسي، فتسقطُ الفريسة بسهولةٍ.. تمتدُّ اليدُ وتبحثُ، ثم فجأة ترتطمُ به، أغبى الأغبياء كانوا يدركون فوراً أي شيء ذاك الذي لامسوه، فيصرخون ويشتمون ويتابعوننا بالحجارة واللعنات، ولم يكن هناكَ مجال لأن يُلْدَغَ الأولاد من ذلك الجحر مرتين، مرة واحدة تنفخُ فيهم الشيطنة، لكن ممارسَة هذه اللعبة مع بنت كانت أكبر من مغامرة.

* * *

وظلت تبحث هناك داخل جيبي أحسست بيدها تصل.. لكنها لم ترتطم بشيء.. هل اكتشفتُ الهوّة للمرة الأولى هناك، على الشاطىء، حيث السفن تُبحر في الليل باحثةً عن أرض.. ربما اكتشفتها قبل ذلك مرتين أو ثلاث.. ربما المرة الأولى.. نحن ننسى.. ننسى لنعيش.. لكننا لا ننسى تماماً، كي لا نموت.

قالت لي: إجلس هنا.. سآتي بالمفتاح.

وذهبتْ

لم يكن الفندق مهيأً لاستقبال الوفود، بقدر ما كان مهيئاً لاستقبال السياح، في بلد سياحي مفتوح على البحر، جلستُ.. وانتظرتُ.. عادتْ.. دستْ يدها تحت إبطي وانتزعتني من العتبة الحجرية.. وانفجر الضوء فجأة، حين أضاءته.

عدت من غيابي حيث فوجئت بوجودها في غرفتي، كأنها لم تذهب ولم تأت بالمفتاح.. ولم تنتزعني من العتبة الحجرية.

قالت: سأبقى معك الليلة.

قلت: ليس هناك ضرورة.

فرمقتني بنظرة..

وقالت: أخشى أن تعودَ للبحر ثانيةً..

قلت: لا تخافي..

واصرت أن تخاف

لمحتُ كيساً بلاستيكياً صغيراً في يدها.. لمحتُهُ حين وضعَته جانباً.. عندما اقتربتْ مني، وبدأتْ بفكِّ أزرارِ قميصي.. دون أن تترك لي مجالاً لأنَّ أُفكِّر بما تفعله وتحدثتْ عن البردِ وأهمية أن أُبدل ملابسي المبتلة بسرعة.

كانت تمارسُ عملها كطبيبة.. أمام حالة مرضيةٍ عاديةٍ، ببساطة أذهلتني.. وحين وصلتْ إلى الحزام، قلتُ لها سأخلعه.. تناولتُ المنامَة ودخلت للحمّام قالت: لا تعد بسرعة..

وعندما عدتُ رأيتها في الضوء امرأة أُخرى.. بشلحتها السوداء، التي أطلقت قدراً هائلاً من البياض الأنثوي غامراً مساحة الغرفة.. خفتُ. قلت: ليستْ هيَ.. ربما آمرأة علقت بثيابي كانت في البحر.. وهنا تجمعت.. خطتْ باتجاه الحمّام.. أحضرتْ منشفةً وبدأتْ بتجفيف رأسي، رأسي الذي وجدته يرتطم بصدرها.. صدرها الذي لم يكن يجارى . لحقتُ به. وجففتْ شاربي.

* * *

شاربي الذي أدرك التحدي فجأة، تحدّي نهدين ملكينِ، فآختصرَ الزغَبَ وبرودةَ الشقار اللزجة.

توصلتُ للفكرة أخيراً، رحتُ أركض في الأزقة، أزقة المخيم كلها.. تلك الطويلة الموازية للشوارع، وتفرعاتها، الآن.. الآن أقول: لو راقبني شخص من الجو لرآني كفأرِ المتاهة.

ووجدتُ نفسي أمام شُبّاكها.

شباكها الخشبي الأزرق.. بشقوقه وطلائه المتقشّر عند الجوانب، طرقت الشباك.. خرجتْ.. رفعتُ يدي الملطختين بالسِّخام.. السِّخام الذي لم أدرِ من أين جاء.. وأحسست أنها فهمت. اختفتْ داخل الغرفة، ثم سمعتُ الباب ينفتح.. وتخرج.. ودون أن أطلب منها، مدتْ يدها إلى جيبي، وراحت تبحث، فاصطدمت به، ولم أكن خائفاً أن تصرخ، وأن

تستحضر الفضيحة بكامل تفاصيلها. اليد الدافئة الصغيرة التي تُوصلُ بطريقة من الطرق إلى نهدين ملكَين، عارمين، لم ترتجف، لم تبتعد.. وظلتْ دافئة.. تحركتْ.. لم تتحرك لتبتعد.. تحركتْ لتظل قابضةً على المفاجأة.. وتفجَّرَ دفء لَزِجٌ، اختلط بدفء يدها..

فصحوتُ آخر الليل على برودة بينَ ساقيَّ، وركبتين واهنتين.

هل كانت تلك هي المرة الأولى لفض بكارة الحلم..؟

* * *

وحين رأيتها في اليوم التالي.. كنت خائفاً أن تسأل عما فعلته معها في الليلة الماضية.. لكنّها لم تفعل فتَنَفَّستُ.

* * *

وغمزتْ الزنجيةُ ـ الرمح.. الزنجية الغابة..

: متى راح نشوفك يا آستاذ..

وقلت ان عليَّ أن أتغذى.... أنت تعرف ان الغذاء هام لمثل هذه المسائل.. يحدث ذلك مع العرسان.. أُمي أحضرت لنا زوجي حمَام.. لا أدري لماذا الحمام بالذات، وهل أطلقوا اسم الحَمَام على «الحَمَام» أولاً أم أطلقوه على الحمَام ثم سموا «الحمَام» باسمه. ثمة علاقة وطيدة لا شك.. وقال: ان جارهم «الريحاوي» الأسمر قدمت له أُمه صبيحة ليلته الكبيرة غُرابين مذبوحين.. لأن لديه «غراباً»..

وضحكَ كثيراً

فقلت: أنا لا أمزح..

بحثتُ عن غذاء حقيقي يُمكِّنني من اجتياز سرير أُمها.. وقمتُ ببعض الألعاب الرياضية السويدية، هل هي من السويد؟، لذا سمّوها سويدية؟! وأكلتُ ثلاث علب سردين.. وثلاث تفاحات.. ورغيفين.. أكلت كل ما وجدته.. وقلتُ ان شيئاً من هذه المأكولات لا بدّ سيفيد..

واسترحت طَوال فترة العصر.. وحين صحوت.. كانت أصوات الذئاب تندفع مجروحةً من الجبال المحيطة.. والأفعى تطاردُ الفئران في السقف..

نزلتُ.. ولم يكن تحتَ منامتي شيء.. كنتُ على أهبة الإستعداد، قفزتُ من السرير.. قلت سأفاجئها أنا هذه المرة.. وسأكون سيد الموقف.. واستطعت اجتيازها دون ان أُحسَّ بألم في أي ضلع من اضلاعي.. أضلاعها هي التي تكسَّرت هذه المرة.

وحين رفعتُ يدي لأفتح الباب، إنفتح وحده.. كان أشبه بباب الكتروني لفندق فخم أو مطار.. وتعجبتُ.... قلت لعلني فككتُ السِّحر المضروب، حين ضربت ضربتي الصائبة هذه المرة.

دخلتُ.. وسمعتُ صوتها من الداخل.. يدعوني.. تلمستُ العتمة برغبتي وسرتُ نحو مصدرِ الصوت.. وأحسستُ بيد تسحبني.. وكنتُ ادخرتُ مائي.. قطعته من منتصفه.. وأربكت رادارات أُمها بالصوت والعنف..

أقبلتُ عليها.. وقلت: لقد أتيت..

لم تُمْهلني.. التحمنا.. وبدت لي أصغر حجما في الظلام، وقلتُ: ربما لإحساسي الكبير بنفسي، بدأتُ أرى كل ما أُمسكه أقلّ حجما منّي. تعرف.. ربما كانَ للتمارين دورها ولما حشوتُ به معدتي. ولكنني تعثرتُ.. أقصد انه تعثَّر أكثر من مرة.. وقلتُ ربما أكون الأول.. فكل ما كانِ يدورُ من كلام يؤكد ذلك، كلهم يقولون.. لم يستطع احدٌ تجاوز سرير أُمها..

ونجحتُ أخيراً.. وصَرَخَتْ..

وحين هدأنا سمعتها تسألني:

: هل أرهقتك ابنتي؟!

قلت: تقصدين أُمك..

قالت: لا.. ابنتي..

قلت: أُمك..

واشعلتْ عودَ ثقاب.. وصرختُ أنا هذه المرة.. لم يكن في الداخلِ غير الجدة.. ورحت اركض..

* * *

أمسكتني من يدي.. ومشت بي باتجاه السرير.

قلت: كيف عرفتْ أنني أنام على هذا.. وكان السريران مرتبين تماما.. أجلستْني.. وجلستْ قربي، رفعتْ ذقني واقتربت من وجهي كثيرا، وكان فيها رائحة بحر.. وهمستْ من بين شفتين عطشانتين: إنه يشبهك.. يشبهك تماما.

وقلت: هذا أكثر المداخل سذاجة مما قرأت أو سمعت، وتساءلتُ عن عقلها أين ذهب، وكنتُ أعرف أنها الأفضل بين كل الحاضرين.. رجالًا ونساء..

قلتُ: عبقرية هناك.. وساذجة هنا.

تلاشى بياضها فجأة.. البياض الغامر، بكل منابعه ومصباته راحت ترتجف شَبَقا.. قالت: أعرفكَ من زمن.. وانتظرك.

لكن شيئا ما في جسدي كان مفقودا..

قلت: إنني متعب. وأريد أن أنام.

استجمعتْ كل ما فيها من بقايا قوة، وهمستْ: لا بأس.. يحدث هذا للرجال أحيانا.

قلت: في نفسي: مجربة.. أم مثقفة؟!

وقفتْ.. ووقفتُ.. رفعتْ طرف الغطاء، دخلتْ تحته.. مسّدتْ شعري قبل أن تذهبَ إلى الحمّام. وحين عادت لم تذهب باتجاه السرير الثاني، رفعتْ طرفَ الغطاء ودخلتْ سريري، سحبتُ يدي.. فشدّتْها نحوها.. ونامت عليها. حيث دفء العالم كلّه متجمّع تحتَ أُذنها تماما.. حيث البياض حارق.

قلت للآخر: هل هو البياض الذي يحرقنا.. أم اننا نحرق أنفسنا حين لا نستطيع دخوله..

قال: أنت أدرى!!

قلت: لم أعد أدري.. كلما جمعت نفسي هبت فجيعة ما فبعثرتها.

وقلت لها: حين تبين لي، أن ما يحرقني دموعها وليس ما تحت اذنها: إنك ابنة لحظةٍ أجمل من هذه.

قالت: أفهمك.. أنت لا تريد أن تستغلني..

قلت: لست جيدا إلى هذا الحد..

وكانت تهدأ.. في العتمة.. العتمة التي تمتص بياضها شيئا فشيئا.

وقالت: إنها انتظرتني.. وستنتظرني..

وسألتْ: هل هناك سرّ؟؟

قلت: لا أسرار..

ونامت.

* * *

وكنت قد أصبحت حذراً.. راقبت بعيني المفتوحتين كل شيء.. وسألتُ: وقالت لي ان جدتها ماتت من زمن طويل..

فسألتها إن كان لأمها قريبات معمّرات في البيت..

قالت: إننا مقطوعتان من شجرة.. ليس لأمي سواي.. وليس لي سواها..

قلت لها: الأحلام لا تجيء من فراغ

فقالت بدلال: يا آستاذ إنسَ.

وسألتْ: متى ستصل؟!..

فقلت: قريبا..

وانتابتني رغبة عارمة لتفقّد نفسي في مرآة، وحين وجدتها.. جلست أمامها دون حراك.. حتى أحسست أنني لو تحركت الآن لما تحركت صورتي داخلها..

* * *

قال لي: لقد أشبعتني كلاماً عن بطولاتك.. وإذا بها وهْمٌ.. ليسَ أكثر.

قلت: كنتُ بطلاً حين كنتُ أنا.

* * *

وقال: أكان لا بد من بطولتك تلك، حين اندفعتَ تلك اللحظة باتجاهي، وكانوا يعدونني للحياة.. أولئك.. أصدقائي في القبر؟!

.. أحدهم قال لي: خذ رأسي.. وقال آخر: خذ ساعدي.. وقال آخر: خذ صدري.. وقال آخر: خذ عنقي.. وربما قال اخر: خذ عضوي. ولم أغضب.. لقد منحوني أعضاءهم السليمة.. أعضاءهم التي لم يصفر فيها الرصاص.. ولم تقضمها الشظايا... وحين اندفعت الجرافة.. لم يكونوا قد انتهوا من تجميعي.. ولذا نقصتُ يدا..

.. تعرف.. دقيقة واحدة أخرى كانت كافية لكي أخرج إلى العالم كاملاً.. دقيقة واحدة.. ولكن.. قد تكون انت المسؤول في النهاية.. لأنك أنت الذي اندفعت قبل اكتمالي.. ثم من يدري؟ هل كانت تلك أصابع الجرافة القادمة لردم الحفرة إلى الأبد.. أم أصابعك؟

.. هل كنت ستخسر شيئا لو تأخرت؟!!

الماء.. الماء الذي كنا نعتقد أنه يملأ الخزانات، الخزانات العالية التي نسيناها على السطح، حيث نقطة المراقبة وأكياس الرمل تحجبها عن جنوب النار، النار التي ظلت تستَعر.. وتستعر.. واستمرت المعجزة بقوة المعجزة وحدها، حين قتلوا أفرادَ نقطة المراقبة.. ولم يقتلوا الخزانات.. الخزانات التي مرَّ بها الرصاص، وظل الكثير من الماء في قعرها، سقطت القذيفة فيها وملأتها فراغاً.

تنبهنا إلى ماء يسيل.. يندفع داخلَ القبو، ماء حار، بارد، صرخت العجوز، العجوز التي كنتُ أعتقد أنها وضعت أواني مطبخها كلها في عبِّها، الطناجر والصحون.. الملاعق، المصفاة إبريق الشاي، دلة القهوة والفناجين، بابور الكاز، وربما صحن العجين أيضاً. العجوز صرخت، ولم تكن لأمي القوة اللازمة لإطلاق صرخة.. لكنها قامت تركض.. قمنا نركض، لم نكن نعتقد أن كلَّ هذا الماء كان فوقنا ونحن عطشى، كلٌّ حَمَلَ الإناء الذي طالته يده، اندفعنا باتجاه المزراب، المزراب الذي تدفق فجأة.. وكان الماء فيه صافيا، ولم يعد كذلك.. الماء صارَ أحمر.. المزراب بكى دما.. ربما بسبب ما رآه فوق السطح.

العجوز صرخت: دم

ودلقت الماء الذي تجمع في تنكتها، فسحبتها أُمي بعيداً.. أوشكت

أن تقع.. ووضعت طنجرة كبيرة، وصرختْ بنا أن نُحضر كل ما في الداخل من أوان فارغة.

وهطلت قذائف أخرى باتجاه لمعان الماء في الأعلى، وتطاير زجاج.. وازداد احمرار الماء.. ولم ندر هل دم الماء هذا الذي يتدفق أم دمهم.

ولم يكن لدينا من الأواني ما يستوعب الدم المتدفق. الذي ظل يسيل داخل القبو، إلى أن أغلقنا طريقه.

العجوز قالت لأمي: ولوْ.. بتدفعيني!!

وكانت تبكي.

أمي اقتربت منها.. وكانت المرأتان ملطختين بعذاب وطين.

: طَوال عمرنا كنا نُغمِّس خبزنا بملح عرقنا، يبدو أن الأوان قد آن لنشرب ماء دمنا. يا خالتي.. ماء بدم أفضل من الموت عطشا.. سنموتُ قبل الوصول إلى كوب بعد اليوم.

* * *

في الليل لكزتني أُمي.. قالت: إذهب وهات الحَمَام.

وتذكرتُ الحمامة الوحيدة، حمامة الخراب الوحيدة فوق السطح المعجون.

قلت: لو استطيع الإمساك بها..

تجاوزتُ البيوت المهجورة ثانية، وزحفت حتى عبرت الشارعَ وصرخَ أكثرُ من كمين: مَنْ هناك؟

وأرد: رفيق.. أو أخ.

وكنتُ أعرف الكمائن كلّها، والكلمة التي يجب ان أردَّ بها، الكمائن التي عملتُ في بنائها بزهو. الدُّشَم، والخنادق العميقة المتعرجة، وحين وصلت الباب.. باب الحوش الذي أصبح غربالاً.. دفعته.. لم ينفتح.. أدركت أن دمارا آخر تراكم خلفه..

ولم يكن هناك بُدٌّ من القفز فوق السور، قفزت، وكنتُ محتجبا بدمار البيت.

سرتُ في الدخلة المحاذية للشباك، خائفا من القطة، القطة التي لم تعد قطتنا منذ الحرب، منذ الإبادة.. القطة التي تتشهى الحَمَامة.. وتُكشِّر عن أنيابها في وجهي..

قلت: لعلها ليست قطتنا.. ولعلني لست أنا. ماذا لو قفزت الآن إلى وجهي واقتطعت جزءاً من لحمي؟

ارتفعت قذيفة التنوير، وكنت مطمئنا انهم لن يروني، وأن المعركة هناك عند المزبلة.. كانوا يريدون حسمها في تلك النقطة.. ولكنّهم لم يعرفوا انهم يدخلون إلى حذوة حصان، وانهم سيقعون في كماشةِ النار تلك.

ريش الحَمام يغطي كل شيء.

ولم تكن الحمامة هناك.. ولا القطة الكبيرة. وسمعتُ مواء القطط الصغيرة لكنني لم أجرؤ على الإقتراب من الصندوق الخشبي، بيتها، مخافة أن تكون الأم هناك.

حفرتُ بحثا عن المطبخ.. ولم نكن من أولئك الذين يشترون فوق حاجتهم. حفرت بقوة اليأس وحده، حتى إذا ما سألتني أمي.. قلت: لم أجد شيئا.

قلتُ: لو أن الحمامة هنا.

وتذكرتُ «النقيفة» الملقاة هناك، قرب شجرة الرمان الصغيرة، في الحوش،شجرة الرمان العارية.. مشيت باتجاهها، وضعتُها في جيبي.. عدتُ وتحسست بدلَة أبي.. سحبتُها بعيداً عن الحطام باتجاه الزاوية الجنوبية للحوش، جلستُ.. ولم أدر كيف نمت.

* * *

صحوتُ.. لم أجدها.. ولكن رائحتها كانت تفوحُ من يدي، يدي الدافئة التي بقيت مثلي دون حراك. يدي الهوة أيضا.. وسمعتُ صوت

البحر، البحر الذي كان يتفلّت من نفسه طَوال الليل.. هل كان يحاول الوصول إليها ونحن على الشاطيء؟

بحرٌ يحاول.. ماء بارد يحاول.وأنا الرمل.

* * *

وقال لي: إن وقتا طويلاً مرَّ قبل أن أعرف أن يدأ واحدة لا تكفيها.
وقلتُ له: لو تحركت يدٌ واحدة مِنْ يَديَّ تلك الليلة لكفَتْها.

وقال: لقد ركضتْ باتجاهي.. كما يحدث في الأفلام الهندية ـ تعرف كيف يركض البطل فوق السفح الأخضر.. بين الحدائق.. مندفعا فوق الأزهار ليتلقف حبيبته بين يديه، ويختفي بها خلف جذع كبير أو سور أخضر، دون أن نرى ما يفعلان ـ لقد كرهت الأفلام الهندية، لأنها ببساطة «ضراط على بلاط».

وقال: حين ركضت وكنّا في الشارع.. وأحببت أن أراها هناك.. في ذلك المكان الذي افترقنا فيه.. على رصيف الجزار.. وقلتُ سأقهره.. وتعود الحكاية من حيث انتهت.. حتى مكانيًا.

عندما أقبلت.. عندما رأيتها.. نبتت يدي من جديد، أُقسم انها نبتت من جديد، وكان بإمكاني أن أُصافحك بها وأن أشد على أصابعك وأن أجعلك تقول: آه.

لم تعانقني.. حتى كما في الأفلام الهندية.. الشارع مزدحم.. ولا يعقل أن نرتمي تحت الأقدام لنتبادل القبلات.

ولكن الجزار ابتسم هذه المرّة.. وكان يراني دائما أقف أمام دكانه لسنوات.تأملتها قادمة، ميزتُ خطواتها بين عشرات آلاف الخطى قربَ مواقف الباصات.. عند الجسر، حيث أقفاصُ العصافير والشُّباك والآلات الموسيقية المُعلَّقة من أُذنيها تتأرجح في حبل واحد.

وغمزني الجزار بعينه.. وأشار إليَّ أن اقترب منها، ولما وجدني

كالصنم، لوَّح بالساطور..وأشار برأسه: أن آقترب. ثم هوى بالساطور على لوح الخشب السميك أمامه.. ورأيت الشرر يتصاعد.

فاقتربت.

* * *

وقلتُ له: إنني كنت قريباً دائما.. ليلة كاملة وأنا قريب منها.. ليلة كاملة تسرب بياضها عبر ذراعي.. ولم افعل شيئا.

قد تقول لي: إنني خائب.. لا بأس.. لكنني كنت أنا.

وقال: كان سيذبحك الجزار.. كان سيذبحك ويوزّع لحمكَ على الكلاب، لو عرف بهذا.

وقلت: ماذا تعني بالكلاب هنا؟

فقال: الكلاب.. الكلاب فقط.. الجزار قال لي انه لا يغش الناس.. يغش الكلاب فقط.

* * *

وقلت: إن القطة وقفت هكذا مُتَنَمِّرَةً في وجهي طَوال الليل.. هل كانت تتأملني أثناء نومي.. أم انها عرفتْ أنني ادفأ من قتيل فانتظرتْ صعودَ روحي..

وسألته: لماذا تنتظر القطة صعودَ روحي.. هل إذا أكلتني حيا ستوجعُ روحيَ أسنانها؟!

وقال: بدأتَ تفهم القطط، بل بدأت تتأثر بحكايتي أنا وتعيد كلماتي.

وقلت له: ان القطة ذهبت حين صحوت.. حين فتحتُ عيني.. ذهبت وحفرَتْ.. بالتْ بعيداً.. أمامَ عينيّ. وإنها لم تبُل علي.. فكيف لم تأكلني.

وضحك حتى رأيت يده المبتورة تهتز.. ومن بين دموعه صرخ صرخة نيوتن: هذا لأن الجميع بالوا علينا.. حين تركونا هكذا وحدنا.

وصارحته: ان عدم أكل القطة لي يعود ربما إلى أنها أصبحت

هزيلة أكثر مما يجب، ولأنني فريسة في أضعف حالاتها قادرة أن تُطَوِّح بها إلى النهايات.

* * *

بالت.. ثم راحتْ تتشمم كومة ريش دفعتها الريحُ إلى الزاوية الأخيرة من زوايا الحوش، خلفَ برميل الطحين القتيل. وأخذتْ تلوكُ الريشَ. وحين قمتُ.. حين اقتربتُ منها لأعرفَ إن كان ثمةَ جناح أو قطعة لحم باقية من الحمامة، كشَّرتْ عن أنيابها وزمجرتْ.. وخطتْ خطوتين باتجاهي.. فتراجعتُ.

* * *

وقلت له: إنني أعتدت طعم الريش.. لأنني أصبحت أخاف مما هو في الداخل.. تصور أن أصل إليها واجد بعد جهد جهيد أنني لم أظفر بغير الجدة..

وقلت: لقد استسغتُ لحمَها. أقنعتُ نفسي بذلك، حين اكتشفت أن سرير ابنتها النمرة.. لم يكن فارغا في أي يوم من الأيام.. وأن لغرفتها بابا آخر.. بابا لا يدخله أمثالي.. كان عليّ أن أكونَ شيخا على الأقل أو مدير تعليم لأصِلَ إلى السرير من ذلك الباب.

وقلت له: إنني بدأت أقرف من نفسي ومنها.. وهذا أفرحني.. إلاّ أن ابنتها لم تكف عن السؤال: متى ستصل يا أستاذ؟

قلت: سأدخل من الباب الخلفي وسأبتلعها.. وأُفسدُ اللعبةَ كلّها ودخلت.

* * *

أمي قالت لي أن امرأة حاولت معاقبة قطتها التي ازدردت قطعةَ لحم كبيرة من مطبخها، فحبستها في الغرفة وبدأت تضربها بعصا المكنسة.. وفجأة بدأت المرأة تصرخ، هي التي أغلقت الباب بالمفتاح.

كانت القطة تُلقي بنفسها بين الجدران ككرة مطاطية وتندفعُ باتجاه

المرأة فتنهشها، ثم تطير باتجاه حائط آخر وترتد بقوة أكبر، ولم تعد المرأة تجد عصاها.. وحين خلعنا الباب - تقول أمي - كانت المرأة «الله لا يوريك»!!

* * *

وقلت: ان القط لم يستطع ازدراد النمرة.. صرختْ.. فصحتْ أمُّها.. اقتربتْ مني وقالت: ألم نتفق.. وكان الشيخ قد فرَّ خوفا من الفضيحة. وتقدمتْ نحوي هائجةً.. فأطلقت ساقيَّ لغرفتي.. تبعتني.. ولم يكن للغرفة قَفل.. أغلقتُ الباب بظهري وانتظرتُ.. سمعتُ خطاها تقتربُ، جاءت ودفعته بكل قوتها.. فوجدتُ نفسي ملقى على السرير.. انقضت عليَّ.. فهربتُ.. قامت.. تعثرتُ. وفجأة تغيَّر الدور.. هاجمتُها.. فبدأتْ تفرُّ.. أدركتُها في إحدى الزوايا.. ولم تكن تصرخ.. كانت تدفعني.. وأخذت بثأري كاملاً!. وحين نهضتُ قالت: الآن تستحقها..

غادرتُ الغرفة.. رأيت ابنتها صاعدة بأطمئنان.. كأنني لم أداهمها.. تجاوزتها تبعني صوتها: متى ستصل يا أستاذ؟

* * *

وقال لي: ان قطته نامت على ذراعه، وكان يتمنى أن تُشَرِّحَهُ.. نامت على يده المبتورة...

وان صاحبه الذي تخلى له عن بيته تلك الليلة.. قال له صباح اليوم التالي: فضحتنا.

وقال: لقد حاولتُ ولكنها ظلت تتمنّع، وقلت لها: لِمَ اخترعتِ كل هذه الحجج للإفلات من أهلك إذن، الحجج الجهنمية عن الصاحبة التي أصرت أن تنامي عندها، لأن الثلج أغلق الطرق. الصاحبة التي لم تكن غير زوجة الصديق التي قال لكِ أبوكِ: دعيني أتحدث معها. فقالت له: إطمئن يا عمّي . واطمأن حين سمع صوتَها البريء.

وقـال: لقد عذَّبْتني.. مثلما عذبتَ تلك المسكينة التي كان يمكن أن

يذبحك الجزار من أجلها، ويطعمك للكلاب، وصمتَ طويلاً ثم قال: لقد استجمعت شجاعتي أخيراً.

: لا تقل لي انك اغتصبتها.

فقال: بيد واحدة لا تستطيع اغتصاب امرأة، إلّا إذا قتلتها أولاً وأنا لم أكن أريد اغتصابها.

فقلت: عن أي شجاعة تتحدث..

: عن شجاعتي في إفشاء السر الذي لم أقله لأحد من قبل.

وعاد إلى صمته.. ثم تنهَّدَ.. وقال: كنتُ على وشك الجنون.. الساعة كانت تقترب من الثالثة صباحاً.. والثلج يمر خلف زجاج النافذة.. ويتراكم عليها.. الثلج فـي الداخل، ولكنّها حارة.. ولم أدر لماذا أصرت أن تنام بجوار يدي المبتورة.. أنت تعرف.. لا.. أنت لا تعرف. يُمكن أن يجن الإنسان في حالة كهذه.. وقد جننت.. لا.. قبل أن أجن بقليل قلت:

«إيدك ولا جميْلِةِ الناس».. وحمدتُ الله أن أبقى لي يداً واحدة تنتهي براحة واسعة وأصابع طويلة.. فاستحلبته.

* * *

وقلت له: بعد أن مدت يدها وفضتْ بكارةَ حلمي للمرة الأولى.. لم أعد أعبث به.. وكنتُ انتظرها كل ليلة لتأتي في المنام.. وتدس يدها في جيبي، ولم تكن تفعل.. وكان في عنفوانه أيامها.. بريئاً.. ويتقافز مثل جدي، دون توقف.

أنت تعرف الفرق بين أن تعبث معه.. وبين أن تأتي بما تملكه من أشياء لا تُجارى وتمدُّ يدها. تماما كالفرق بين يدك، وبين مهرتك إذ تنفرد بها بين الأشجار، وتتذوق جموحها.. وتُصغي للعرقِ وهو يتصببُ تحت إبطيها وتحت فستانها.

ولكن المشكلة معقدة.. أنت تعرف.. حين تفكر بها طويلاً لا تستطيع النوم، في الوقت الذي عليك أن تنام لتتمكن هي من الحضور.

الحل إذن أن تنساها قليلاً لتغفو.. ولكنك لم تكن قادراً أن تنساها.. فتُضيِّعها ليلةً أخرى.. ويتراكم ماؤك في داخلك.

نعم.. لقد حاولت أكثر من مرة كبحَ دمِ الذئب فيَّ.. الذئب الذي كان يعوي مجروحاً.. متفلتاً من نفسه، وحاولتُ هدهدةَ مخالب الصقر التي تنهشني هناك.. ولم تكن تأتي.

وقلت سأتحداه.. سأتحداه من أجله.. من أجلها. وكان الأولاد يقولون إن الإستحلام حلال.. والإستمناء حرام.. وكنت أريدها بالحلال، لا.. لم يكن ذلك.. كنت أُريدها لأن ذلك كان لا يوصف.. كان سحراً.

* * *

وقال: إنه لم يستطع أن يتحدى الحَمَامة إلى هذا الحد، فهي تتحول إلى صقر فجأة. أنت قلت ذلك.. إلى ذئب.

* * *

وقلتُ له: إن الحَمَامة كانت ريشا فقط.. وان القطة كانت تمضغ سرابَ اللحم، وان ريشة سوداء التصقت بشاربها، وانها حاولت أن تبعدها بيدها ومخالبها وأن تنفض رأسها..

قلت: لم لا تنساها ـ ولكن من يستطيع أن ينسى ـ أنا معك ولم يكن هناك أثر لطرف جناح أو حتى رِجلاً منكمشةً أصابعُها برعب.. لا تدري على أي شيء تقبض..

وقال: ان ذلك بالنسبة لي كان أفضل من أن الوكَ الريش.. أو أنهض باتجاه فستانها الملقى على الكرسي بجانب السرير.. السرير المزدوج الذي أنام فيه للمرة الأولى في حياتي. وأن أبدأ بمضغ قميصها. لتمضغه يدي.. قبل أن أُجنّ.

* * *

وقلت له: لم أكن قادرا على اقتراف الجنون الذي اقترفتُ.. أقصد حلق شاربي. لو كانت هناك، أقصد لو آنها لم ترحلْ. وكنتُ سألتها عن

الطبيب الذي ذهبت إليه فلم تُجب.. حزمتْ ملابسَها.. وقالتْ سأسافر إلى أهلي..

وسألتها: متى تعودين..

فقالت: حين تكون هنا.

* * *

ولم تكن هناك.. ظلت تراوغني.. حتى اهترأت الرسالة في جيبي قبل أن تأخذها.. ظلت تتمنع إلى أن قالت لي: اعطها لصاحبتي. وكانت صاحبتها دائما معها. وحين هممت بإعطاء الرسالة لصاحبتها التي معها. وكان لها نهدان صغيران. أصغر من نهدي صاحبتي قليلاً ـ ربما لهذا اعتبرتْها صاحبتي صغيرة.. وان حديثي معها لن يُثير «القال والقيل» بين الأولاد ـ قالت لي: لا.. إعطها الرسالة بعدين.

وكدتُ أُجنّ

وذابت الرسالة أخيراً.. فابتل جيبي.. قطعتُ كل شيء بالحلم.

وقالت لي صاحبتها: إنها خَوِّيفَة.. وإنها لا تحبك.. ولم يكن نهداها أصغر بكثير من نهدي صاحبتي!! وكانت تبتسم بدلال أوصلني إلى نتيجة: ان حجم النهدين ليس له علاقة بالأنوثة، وقلت: من يدري.. ربما كانت يد هذه أنعم.. وما دمتُ أراها بيسرٍ في النهار.. سأراها في الليل.. أعني في الحلم.

* * *

أحببتها، فجنت صاحبتي تلك.. وتماديتُ فسعَّرتُ نارَ حبي لهذه بعد أن رأيتها مرتين في الحلم، بطريقة أكثر جرأة.. لكنها في مرة من المرات كانت كلّها، وفي مرة أخرى لم أُميز ملامحها. أنت تعرف. لعبنا جيداً أنا وإياها.. وتأكدت نظريتي المتعلقة بحجم النهدين.

ولكن ثمةَ أمراً كان يقلقني دائما : ان كل شيء ينتهي بسرعة.

* * *

كنت من المدمنين على مجلة طبيبك.. ولم يكن ذلك حبّا في العِلم،

كنا نقرأ عن تلك الأشياء المثيرة، تلك المُتعلقة بطول العضو.. وعدد المرات.. و.. والمدة التي يستغرقها اللقاء.. وكنت سمعتُ أشياء مفادها أن انتهاء اللقاء سريعا عيب كبير يمس الرجولة. وان الرجل يستطيع أن يتحكم به.. فذهبت إلى المكتبة العامة وبدأت بالتفتيش في الأعداد القديمة إلى أن وجدت ما أريد، كانت النصيحة تتمثل في أن يُفَكِّرَ الرجلُ بشيء يشغلُ بالَهُ حين تحمى الحديدة، وغير ذلك.. ولكن هذه كان يمكن تطبيقها دون تكاليف.

خرجتُ من المكتبة منتصراً.. وذهبتُ للنوم فوراً، وانتظرت إلى أن جاءت في الليلة العاشرة ربما.. ولكن لم يكن لها نفس الملامح تماماً.. عرفتها من صدرها ونصفها الأسفل.

بدأت أفكر فيما سأُشغل نفسي فيه.. فأضعتها.. ثم عادت آخر الليل.. وكنتُ نسيت نصيحة طبيبك وتمَّ الأمر بسرعة كما يتم دائما. وداهمني إحساس عجيب بأنها ستتركني..

وقال لي: انه اضطر أن يَحْلُم بها وهي بجانبه.. أن يحلم بزوجته، التي ظلتْ ليلة الثلج قائمة بينها وبينه.. وانها كانت تسأله ببلاهة: عما إذا كان يوجد حل لمسألة يده.

وقال: إنها بدأت تتصل به، وتقول إنها ستتأخر عند صاحبتها لأن الطريق مغلق.

وقال: على مين يا عَم. تَذْكُر حين زرناكم في البيت.. كانت السهرة جيدة.. ولكنني امتعضت وتغيَّر لوني.. تَذْكُر، كان عيد ميلاد أحدكم. حين فُتِحَ موضوع شغب البنات، وعددتْ سبعَ طرق يمكن أن تتبعها الفتاةُ للضحكِ على ذقن أبيها.. للانفراد بحبيبها. ولم تكن وصلتْ معي إلاّ إلى أربع من هذه الطرق.. فتغير لوني.. واحسست انني أبوها.

وقال انه ضبطها صدفة مع زوجها في أحد الفنادق.. زوجها السابق. فأدرك أنه البطل الوهمي في مسرحية غريبة.

وقلت: الدنيا مسرح..

فصاحبتي التي ذابت رسالتي إليها.. لم تذب هي.. تماسكت عندما علمتْ بعلاقتي مع صاحبتها الجريئة.. صاحبتها التي أصبحت حبيبتي. وأصبحتُ أرى شاربي من خلال عينيها.. وعيني على تلك.

تعرف.. إن الحياة معقدة. لنأخذ مثلاً صاحبتي الجريئة، لقد كانت تعرف أنني أهبطُ إلى وسط البلد وأبيع الجوارب هناك. الجوارب الرخيصة. وقد رأتني أكثرَ من مرّة.. عندما كانت تمر قربي مع أهلها.. لتستقلَّ الحافلةَ إلى المخيم، نعم نفس النقطة التي التقيت فيها صاحبتك.. أعني زوجتك.. قرب اقفاص العصافير والآلات الموسيقية المشبوحة.. كانت تراني وتبتسم.. وتظل علاقتنا قائمة.. إلى أن عرت ذات يوم مع صاحبتي الأولى.. فلم تعد تحدثني بعد ذلك.. وحين سألتها: ما الذي فعلته لأستحقَّ كل هذا؟

ردت: فضحتني مع صاحبتي.. لقد عيَّرتني بأنك بائع جوارب.. وقالت لي: حبيبك يبيع الجوارب، وجواربك مثقوبة.

وبعد أشهر قالت لي صاحبتي الأولى، بعد أن نسيتُ تلكَ: ان خطتها نجحت.. وانها تريد أن نعود أصحابا كما كنا.

ولم أدرِ متى كنا أصحابا.. لم أتذكر سوى مرة الحلم تلك وعدنا.. فانقهرتْ الثانية.

وبقيت أبيع الجوارب. إلى أن راجت تجارة السجائر المهربة.. فبدأت ببيع السجائر، إلى أن أمسكوني في أحد الأيام.. ولم استطع الفرار.

* * *

قال: احمد الله أننا استطعنا أن نفرّ ذلكَ اليوم. وإلا لكنّا الآن «أحياء عند ربهم يرزقون».

وكنت صرختُ به: ان سلبيتك هذه ستقتلنا.

وكان يقول لي: إنك تبحث عن نصر ما بأي ثمن، على الأقل أنا معذور، ما الذي يمكن أن أفعله بيد واحدة. يد واحدة لا تصفق.

وقلت له: لا يهمك.. تستطيع أن تحقق المعجزات باليد الباقية.

دخلنا التنظيم.. لم يترددوا في قبولنا.. مثلما حدث أيام المذابح معي ومع جارنا الصغير مسؤول الأعلام.. عندما قالوا لنا.. نريد إذْناً من أولياء أموركما.. وكان أبي ضائعاً وكذلك أمه .. هذه المرّة لم يترددوا. وبعد ثلاثة أيام من انتظامنا، أعلن رجل له اسم أسطوري، حركي بالطبع، اعلن الإنشقاق، وأصدر بياناً، فآمنّا به.. وقلنا.. هكذا يكون الكلام.. هكذا يكون النضال، وتبعه ستةُ آخرون فأصبحنا تسعة. وقال: اطمئنوا يا رفاق، ـ وفرحنا اننا رفاق ـ إطمئنوا.. سنحققُ المعجزات بعددنا القليل هذا، وضرب أمثلة لم نكن نعرف إلّا واحداً منها عن الفئة القليلة التي غلبت فئة كثيرة، من النبي عليه السلام حتى كاسترو وجيفارا.. فآمنّا بحتمية انتصارنا.

* * *

خرجنا للجبال.. ومن هناك.. أعلن الرجل ذو الإسم الأسطوري أن الإجتماع الأول للمكتب العسكري للتنظيم الجديد سيُعقد، وقد اقترح الغاءَ كلِّ المكاتب التقليدية اثناء الطريق، فلا مجال لأن يكون هناك مكتب سياسي، لأن السياسيين هم الذين يعملون على تخريب بيتنا، ولا ضرورة لوجود لجان مالية وتنفيذية وسواها، لأن العمل الوحيد الذي يجب أن نقوم به هو القتال فقط.

* * *

وقال لي الآخر: لو كنا شهداء الآن.. لاسترحنا، ولربما كانت حولنا مئات الحوريات.

: يا أخي إنسيّة مش مِطّلْعَه علينا فكيف حوريّة؟

وقال: إن ما يحدث حولنا يجعلني أشعرُ أن يدي لم تكن مبتورة إلى هذا الحد، مثلما هي مبتورة اليوم.

وقلت له: كنا سنروح في خبر كانَ، ولم يكن باستطاعةِ المكتب العسكري إصدار نصف بيان فينا.

* * *

كانوا أصروا على نصب خيمة كبيرة. إندس فيها الرجل ذو الإسم الأسطوري.. وستتُهُ الآخرون. وقالوا: أنتم الأحدث تجربةً بيننا.. لذا ستكونون نواة القوة الضاربة.

فقال لي بعد أن دخلوا: بواحد ونصف الواحد لا نستطيع أن نكون نواة قوة ضاربة لضرب واحد «عضلنجي».. هكذا نأكلُ ضربا ونُفرَّق.

وكان يضطر دائما أن يريح يده من البندقية بتركها ترتاح فوق فخذيه أثناء الجلوس.. أو يسندها إلى صخرة.. أما في ذلك اليوم. ذلك اليوم التموزي اللاهب،فكانَ، وكنتُ معه، ننظر للقضية بمنتهى الجدية إلى أن حَميَ النقاشُ داخل الخيمة.. وكان بإمكاننا أن نسمعه.. حتى لو كان باردا.

قال الرجل ذو الإسم الأسطوريّ: يجب أن نُعلنَ عن أنفسنا بقوة يا رفاق، بعملية نوعية. تهزُّ المنطقة كلّها، عملية لا تُنْسى.. ولتكن إنتحاريّة. لم لا.. .. المهم أن تكونَ نوعية.. وطرحَ عشرة أهداف كبيرة، رجعية، وقال: إن القتال يبدأ من هنا.. ثم بعدها ننتقل إلى هناك.

وتركَ للمكتب العسكريّ حرية اختيار الهدف. وكنا نستمع.. وننظر إلى بعضنا،فأصغر تلك الأهداف، كان يلزمه قوة مظلية مغواريّة لا لتدميره.. بل للتحسيس عليه.

وقال: يجب أن نبدأ أقوياء. أقوياء في كلٍّ شيء..

وحينما تجرأ أحد أعضاء المكتب العسكري أن يسأل: وكيف سننفذ العملية.

رد عليه: برجالنا. لدينا الآن رجلان في الخارج، صحيح أن خبرتهما قليلة.. لكننا نستطيع، بتدريبهما أن نصنع المعجزات.

ـ وكانوا قد طلبوا مني أن أسحب أقسام بندقية الآخر إذا ما فاجأنا عدو.. ريثما يتم تدريبه على ذلك ـ

وطلب من أحد الرفاق أن يطلب صورة لكل منا.. دون أن يطلعنا على

السبب.. كان يريد أن يظل الأمرُ سراً، حتى لا يسبقه تنظيم آخر ويخطف الهدف من بين يديه في اللحظة الأخيرة.. أو يعلن مسؤوليته عن العملية.

* * *

انزلق السفحُ كلُّه تحتَ أرجلنا.. انزلقتِ القمةُ.. الممراتُ الترابية بين الأشجار.. انزلقتِ الأشجار.. في هرولتنا المجنونة بإتجاه الشارع.. ونحن نجتاح كل ما في طريقنا. وعضو المكتب العسكري يركض خلفنا ويصيح: رفاق.. يا رفاق.. تمهلوا.. رفاق.. ارجعوا.. أُريد صورتين لكما..

ولم نكن نحتاج أن نوقف سيارة.. لأن سيارة شاحنة وجدتنا أمامها، فأوقفها الرجل في اللحظةِ الأخيرة وصرخَ فينا: بدكم تنتحروا؟

فأجبناه: لا والله.. ما بدنا..

وبحدسه أدركَ ما يحدث لنا.. فقال: اصعدا. وصعدنا.. مُخَلِّفين المكتب العسكري بلا حراسة وبلا مقاتلين.

* * *

وقالت أُمي: إذا رحل المقاتلون رُحْنا فيها.

وكانت أخبار مجازر صغيرة قد وقعت على أطراف المخيم، يبدأ بعضها بالسَّحل، والآخر بالفسخ.. وأكثرها رحمة بالرصاص.. أو بقنبلة يدوية.

وحاولنا أن نستحلب المزراب، فلم ينزل الماء، الماء الممزوج بالدم.. الماء الذي لم يعد هناك سوى سطل واحد منه. الماء الذي شربت منه العجوز أخيراً.. العجوز التي تعبت وهزُلتْ. فبدأتْ بإخراج ما كانت وضعته في عبِّها من أوان وثياب ومؤونةٍ.. العجوز التي فقدت الأمل أخيراً.. وأدركتْ أنها لن تأكل كل ما تبقَّى من غذاء ملتصقٍ بلحم بطنها من الخارج، فقالت لأمي: طعمي الأولاد... يكفيني ما عشت.

العجوز التي جاء عجوزها.. فصرختْ به. ـ ماذا تفعل هنا؟!

فقال: تعبتُ.. فأعطيتهم البندقية.

فقالت: التعب أفضل من الموت.

وطلبتْ إليه أن يعود.. فعاد..
وردّوهُ.. فأمسكته من يده وذهبتْ إلى المقاتلين ورجتهم أن يعيدوا له بندقيته.
فقالوا: لن نعطيه.. نحن لن ندفع الناسَ دفعا لحماية أرواحهم.
فالتفتت إلى عجوزها وقالت: ما في عندي رجال بتنام في الدار.
فأعطوه البندقية..

* * *

وجاء أبي ومعه المرأة ذات العينين الجميلتين، وعلى جانبيهما مقاتلان طويلان.. قالتْ : إنهما ولداي. وكانت فخورة.

تأملناها بينهما.. أنا ومسؤول الأعلام. وقمنا وسلّمنا عليهما بإعجاب.

قالوا: إنهم سمعوا عن قصف القبو.. ولكن الهجوم كان قاسياً على المحاور.. فلم يستطيعوا القدوم واختليت بأبي.. وحدثته عن البيت.. وبدلته التي قُتِلَتْ وبرميل الطحين.. فقال لي: أعرف.

وطلب مني الا أخبر أمي..

قلت: إطمئن.

وبحركة غير إراديّة مدَّ أبي يده باتجاه إبريق ماء.. وأخذ يشرب.. تنبهتْ أمي فهجمت عليه وآستلتهُ من بين يديه.. فتناثر دم مخلوط بماء.. ماء مخلوط بدم وقالت: هذا الماء للأطفال.. فآرتبك أبي.

* * *

وسألْنا عن الرجل ذي الأبناء.. فقالت المرأة ذات العينين الجميلتين: إنه حاول اختراق الحصار بأولاده الثلاثة.. وأنهم أمسكوه.. وصوبوا رشاشاتهم بإتجاه الأولاد..

فقالوا: سنقتلهم..

وكان قد راهم يقتلون من هُمْ أصغر منهم.. فآنهار.. وقال: ابقوا لي واحداً.. واحداً فقط..

فقالوا: لا نستطيع إلاّ بأمر.

فذهب إلى مسؤولهم.. قال لا عليك.. وأعطاه ورقة، وقال له: إذهب واختر واحداً منهم..

فوقف أمامهم.. وكانوا يحدقون به فزعين.. ولكزه أحد المهاجمين.. أسرع..

فآختار أصغرهم..

عندها أطلقوا النار.. وقتلوا الإثنين

شد صغيره ومضى دون أن يلتفت خلفه.. سار خطوات.. أبتعد.. أوقفوه....: إلى أين؟! ارتبك أكثر.. قال: معي ورقة.. أنظروا. نظروا.. قالوا: سمحوا لواحد من أبنائك أن يبقى على قيد الحياة.. لكنهم لم يسمحوا لك..

وقتلوه.

* * *

وفجأة انتبهنا إلى مسدس هناك.. عند خصر المرأة ذات العينين الجميلتين أنا ومسؤول الإعلام. التفتُّ إلى خصرِ أبي فلم أجد مسدسه.

فَهِمْنَا.. قال: لقد قدمته لها هدية.

وسألناها: هل تجيدين إطلاق النار؟

فهزتّ رأسها.. وقالت ان هناك الكثير من النساء يقاتلنَ الآن في المحاور.. وأشجعهن إسمها «أبو علي» وأخذتْ وساما.. هي رامية «آر بي جي».

وسألناها: لِمَ لَمْ يسمّوها «أُم علي» فهي آمرأة.

فقالت: هيك إسمها شو بعرفني.

وقال أبي: إنه علم بآستشهاد الصغيرة من العجوز، واستنزل الرحمة عليها، ثم عانقنا واحداً واحداً.. وقبل راس أمي.

ودّعونا، بعد أن طلبوا منا مغادرة المكان إذا غيرت رياح الرصاص وجهتها.

* * *

وقال المذيع: ان فتوى شرعية أصدرها المفتى العام، تبيح للمحاصَرين أكل لحوم القطط والكلاب والجراذين.. في محاولة أخيرة للحفاظ على حياتهم.

فلكزتني أُمي بوهن. وقالت: قوم جيب البسس.وكأنها كانت تنتظر ذلك من زمن. أمي التي حاولت أن تبحث بنفسها عن طعام.. فلم تجد.. وحين عادت ورأت عراكنا صرخت: شو بدكوا توكلوا بَعَض. ولم تعد تفكر بالخروج.

رحت أركضُ.. بعد أن قلت لها: ولكنني لن آكل منها أبداً.

قالت: المُهم جيبها.

وللمرّةِ الأولى.. لم يكن هناكَ للرصاص المتناثرِ حولي من أثر في القلب.. أن تأكل القطط أكثر قسوة من أن تمضغَ رصاصةٌ قلبَك.

* * *

وقفتُ أمام القطة الكبيرة.. الهزيلة.. استجمعتْ قوَّتها وحدقت بي.. ولم يكن هناك ريش في الزاوية.. اقتربت منها.. أمسكت بطوبة كبيرة من طوب بيتنا القتيل، ورفعتها، كانت القطة يائسة.. هوتْ الطوبة باتجاهها.. باتجاه رأسها.. وظلتْ واقفة تحدق بي، لم أدرِ أين ذهبت الطوبة.. لأنني كنتُ أغمضت عينيّ.. وحين فتحتهما كانت القطة واقفة في مكانها.. وتحدّق بي. وفكّرتُ باستخدام طوبة لقتْلها وكانت يائسة.

وقلت: سـآخـذ صغـارهـا.. عـدوتُ بـاتجـاه الصنـدوق.. قلت.. سأسبقها. فطار سرب من الذباب الأزرق من داخله.. كانت القطط ميتة سوى قط واحد.. أعمى.. يرضع فخذَ أخيه. والقطةُ الكبيرة خلفي واقفة. لقد تبعتني.. مشتْ خلفي مثلما كانت تفعلُ في الأيـام البعيدة.. مشتْ.. احتكت بساقي، لم أخف هذه المرة.. صعدت طرف الصندوق بصعوبة وآستلقت بين صغارها.

ابتعدتُ.. ورأيتها تحاول إبعاد الذباب عنهم بهزّ رأسها.

* * *

وكنتُ أهز رأسي محاولاً طرد بعوضةٍ.. تئزُّ في فضاء الغرفة.. وبدأتُ بهرش جسمي كيفما آتفق. ولم أستطع إغلاق أنفي لأنام.

كانَ يمكن أن أُغلق أنفي لأموت. سمعت طَرْقا على الباب نهضتُ، كانت الطَّرقَات أشبه بطوق نجاة.. فبغيرها لم أكن قادراً على كش البعوضة بكل صحوي. لكن رائحة الحمّام اشتدت حين مررت أمامه، حين التفت رغما عني إلى الحوض.

حاولتُ فتح الباب.. لم يُفتح.. صرخت معقول؟.. وكنت أهزُّ الأكرة بكل ما لدي من قوة،والطَّرق يزداد.

* * *

وقال أبي الذي عاد أخيراً.. حين رأى أمي للمرة الأولى: انه لم يترك باباً إلاّ وطَرقه.. دون جدوى..

وقلت له: يابا.. لِسَّه حديد ـ هذا هو المهم ـ

فقال: حديد يا ولد.

فقلت: إن شاء الله رحْ تبيِّض وجهنا مع الحجّة.. ويكون حديدك كُلّه حديد.

فنهرتني أُمي: وقالت استحي يا ولد.

وسألته: اشتقت إلها؟

فأقسم أن الأولاد هذه الأيام لا يستحون.. ولم أكن ولداً.

وحين دخلا الغرفة.. طردْنا الأولاد.. أولاد الأخوات وأولاد الأخوة.. وتغامزنا نحن الكبار. وقيَّدَنا فضولُنا قريباً من شقوق الباب..

بقيا طويلاً في الدخل. وتساءلنا: ان كان أبي يجدد حديده للمرة الثانية، ام أنه يحاول ترميمه وحك الصدأ العالق به من سنوات، ليبدأ. ولم تصدر همسة من الداخل تدل على ما يحدث.

* * *

ولم تصدر همسة من الخارج تفيد مَن الطّارق، ولم يستجب الباب.. إلا أخيرا وعندما أشرعته.. كان عرق كثيرٌ يتصببُ مني..

والرائحة العفنة تهب في الممرات فتدفعه للداخل. فيدخل. دون أن يستأذنني، ويدفعني بدوره. وسأل: كلّ شيء تمام؟.

قلت: تمام

وحاولتُ أن أتذكر وجهه

وطنَّت البعوضة قربَ أُذني.. فحاولتُ إبعادها.. وأنا أتفرَّسه.

وفجأة أدركت: موظف البريد؟!!

وفاجأته صرختي.

قال: إطمئن نحن لا نترككم هكذا!.. أنتم ضيوفنا ويجب أن نطمئن عليكم.

قلت: لماذا لم تقل إنك منهم منذ البداية.. ثم كيف عرفت أننا هنا؟

قال: ألم يوصلكما السائق إلى هذا الفندق؟

قلت: السائق أيضاً!!!

قال: أنت تعرف كم نحن مستهدفين من الإستعمار والرجعية وأعداء التقدم.

وقال: سأنام في غرفتك الليلة.. وفي الصباح نرتّب الأمور كلها.. وننقلكما إلى فندق حقيقي.

وسألته: إن كان هذا الفندق مزوَّراً؟!

فلم يرد.

* * *

وسأل الضابط أبي عن جوازه: مزوَّر أليس كذلك؟.. أنتم الفلسطينيون عجيبون.. لا تكفّون عن الشكوى، يستطيع الواحد منكم أن يحمل خمسة جوازات سفر في الوقت نفسه، ولا يقنع.

وكنا نعرف أنه سيأتي.. ولكننا لم نكن قادرين على رؤيته إلّا إذا خرج.. لئلا نفضحه.

وقال له الضابط: من مطرح ما جيت إرجع.

وقال لنا في رسالة: إنه بقي ثلاث ليال في المطار قبل أن تعود الطائرة للتحليق، وحين حلقت حاول أن يرانا من شباكها.. حاول أن يرى البيت.. البيت الذي عُدْنا وبنيناه. وكتب.. لقد تشابهت كل البيوت.

وحين طَرَقَت أُمي بابهم: قالوا لها.. لماذا تذهبين إليه.. لقد باعكم ورحل مع «الزعران» وأكيد أنه تزوج الآن ونسيك.

فقالت: سأذهب لتهنئته.

فقالوا: ليس عن طريقنا.. نسمح لك بالسفر إلى أي مكان.. إلّا إليه.

فقالت: ولا تسمحون أن يأتي.

فقالوا: بالعكس.. فليأت.. وليستنكر.. وليعترف بالتفاصيل التي نريدها.. وستكون البلد كلّها تحت تصرفه.

وطرقت الباب ثانية وثالثة.. لم تتعب.

* * *

فوجئت بالباب مفتوحا في آخر الليل.. كأن زعيق النوارس يملأ المكان.. وصافراتُ سفن تعلنُ بدء إبحارها... قلت: نحن قرب الميناء إذن. وتذكرتُ موظف البريد.. بحثت عنه.. لم أجده.. وكانت «الكنبة» الطويلة على حالها في المساء.. ملابسي فوقها.

سألت: قدومه حلم أم علم؟
وكان الباب مفتوحا.

* * *

وأُغلقت أبواب الدنيا في وجهنا مرةً واحدة، حين قال المفتي في فتواه الثانية ـ ويبدو أن له جواسيسه الذين يستطيعون أن يعرفوا تماما أن القطط والكلاب والجرذان باتت مفقودة ـ

قال: يحق لأهل المخيمات المحاصَرة أن يأكلوا لحمَ موتاهم.
فكسرنا أبواب الدنيا كلّها مرة واحدة.

ولكن قذيفة سبقتنا إلى العتبة، عابرةً الباب.. باب القبو الصغير، الذي كانت تمرُّ منه العجوز قبل الحرب بصعوبة، واستقرتْ وسطَ القبو. تأملتنا واحداً واحداً..

قلت له: ربما كانت تريد التعرُّف علينا.. التعرف على ضحاياها. وظلت صامتة.. وماتَ عددٌ منا خوفاً عشرات المرات في الثواني القليلة التي عرَّشت برعبها في عيوننا.. ثمة غياب لفحنا، غياب عن الإحساس بكل ما حولنا. لعله كان تحضيراً لنا كي نعبرَ عتبةَ الموت.

* * *

وظلتْ القذيفة المغروس رأسها في اسمنت الغرفة، بفراشاتها تتأملنا.. ولم نجد ألسنتنا لنرفعَ أي نوع من الدعوات إلى السماء الدخانية، ووجدنا أرجلنا أخيراً.

فقالت أُمي: شوي شوي يا أولاد
وكانت أعيننا جافة وشفاهنا.. وأُمي الخائفة، أمي التي لم نرها مثلما رأيناها تلك اللحظة.. عادتْ تهمس: شوي شوي يا أولاد.

وقالتْ لي فيما بعد: ان القذيفة كانت نائمة.. وربما متعبة.. ولم يكن فيها حيل لتنفجر.. لو رفعتم أصواتكم لاستيقظت، كانت تهلوس.

وقلت لها: ربما أشفقت علينا بعد أن تأملتنا.. ربما.

وقالت: ربما كان الذي أطلقها ابن حلال.. أجبروه على إطلاقها، وإلاّ فإنهم كانوا سيطلقون النار عليه!

* * *

واختلفنا في القذيفة، واتفقنا ان العودة للقبو باتت مستحيلة. في الوقت الذي بقيت فيه كل أشيائنا الضرورية هناك. وسطل الماء الأخير المختلط بالدم أيضا. سطل الدم الذي تبرعت العجوز بالذهاب للقبو لإحضاره غير عابئة بوجود القذيفة.

* * *

وبكى جارنا الصغير..

اشتد بكاؤه.. احتضنته أمي وسألته عن سبب بكائه.. لكنه لم يجب.. ظل يبكي فقط.

وفجأة قال: إنه وجد أمه على الشجرة.. فوق الزيتونة في الحوش.. حوش بيتها. عندما فتح الباب.

قال: إن القذيفة علّقتها على الزيتونة وانه عرف أنها أمه من خاتمها.. وان زوجها لم يَطر إلى الأعلى.. كان ملتصقاً بالحائط.

ورأينا دموعه تتراجع.. لكن بريقاً ما شعَّ في عينيه.. فلم يعد هو..

قال: ان عليه أن يذهب إلى بيته ليحضر بعض الأشياء.

قلت: سأذهب معك

قال: لا..

وعندما عادَ كان يحمل مذياعاً صغيراً..

قال لي: ان المذياع الآخر مات بين يديه.. وان صوت المذيع مات.. وان نداء المذيع للجماهير لم يصل ولذا فإنه قرر أن يتحرك.

وأخرج أطلس العالم العربي من تحت قميصه.. وكمية كبيرة من ملابس ملونة زرقاء وحمراء وصفراء وسوداء.. جديدة ومهترئة.

وقال: المذياع لكم..

وكنا في العراء.. على بُعد أمتار قليلة من القبو.. ملتصقين بظهورنا بجدران البناية العالية.

* * *

وكان أبي وأمي هناك في الداخل.. تكثَّف صمتنا أكثر وبدانا ننظر في وجوه بعضنا باستغراب.. حين مرَّ النهار كلّه وأوشك الليل أن يكون. ملَّ الصغار حبسهم فانطلقوا يدورونَ خلف الدار، الدار التي لم تزل آثار الطلقات في سورها وأحد أعمدتها الذي ظل واقفاً رغم انهيار البيت كله..

وعمود الكهرباء أمام باب حوشها حيث تَصْفُرُ الريح في الشبابة المعدنية الهائلة التي تنتهي بالأسلاك.. وقلنا ان عمود الكهرباء أصبح نايا للقتلى في ليالي الشتاء.. الناي الذي لم يتركنا نهدأ..

لكن أحداً لم يجرؤ على الصعود إلى رأسه لسد الثقوب.

وقلت ستخرج أمي الآن وقد استعادت عافيتها وشبابها.. مثل تفاحة مزهوة فوق غصنها..

وسأسألها: إن كان عمل لها أيَّ شيء، وستزداد تفاحتها نضجاً.. وتوشك على السقوط من تلقاء نفسها.

* * *

خرج أبي مع من خرجوا.. أولئك الذين غُصّت بهم صناديق الشاحنات.. وألقت بهم خارج الحدود.

: من يريدها فليبحث عنها في مكان آخر.. هذه الفلسطين..

وبحث أبي طويلاً.. بحث كثيراً.. ثم قال:

كان بيننا وبينها باب واحد.. وكلما مرت سنة أبعدتنا إلى مكان آخر.. فإذا بالباب يصبح بابين.. ثم ثلاثة أبواب.. وأربعة.. اثنين وعشرين باباً.. ولم يعد يُسمح لك أن تموت كما تريد.. ولم يكن مسموحاً لك أن تعيش كما تريد.. أيّ حياة هذه؟ كل هذه السنوات وأنا أحاول الوصول إلى عتباتها، فإذا بي أصل إلى عكاز..

العكاز الذي حاول أن يخفيه.

: الآن يقولون.. أهلاً.. يقولون لك: تنفس ملء رئتيك.. وهم يدركون جيداً أنك بلا رئتين. ويقولون لك: نم ليلك الطويل.

* * *

قال: سأنام في القبو

صرخنا به: والقذيفة.

قال لا يهم.. أريد ضوءاً.. ولا أستطيع إشعاله هنا في الخارج..

كان مقصه قد عمل عمله في الملابس التي أحضرها.. وكان لا يكف عن تقليب صفحاتِ الأطلس.. أخرج إبرة وخيوطاً من جيبه.. وبدأ يخيطُ القطع ببعضها.. وعندما حل الظلام قال:

سأنام في القبو.

ولم ينم

* * *

اختفى هناك في زاوية قصية.. ولم يحدثنا.. كنا نجلس ملصقين ظهورنا ببعضنا.. بحثاً عن دفء..

وعندما خرج صباحا استلّ عصيًا من عريشة العنب.. العريشة التي تعود للعجوز.. واختفى في القبو ثانية وعندما خرج.. كنا مندهشين تماما.

كل أعلام العالم العربي كانت ترفُّ هناك في رؤوس العصي.. العصي التي غرسها تحت حزامه من الأمام والخلف.. وترك فُسْحَةً صغيرة بينها لعينيه.. وكان المذياع بين أيدينا يدورُ كاسطوانة مشروخة تردد دون توقف: يا جماهير أمتنا.. يا جماهير أمتنا. أحنى ركبتيه وهو يمر تحت العريشة.. وكان وجهه للشارع.

صرختْ أمي: وين يا مجنون... وكنا نبكي..

لكنه لم يرد

عدّل قامتَه وغالب دمعا حارقاً في عينيه. كشطَ بقعة دم جافة من على خده.. كانت تضايقه..

ثم أطلق صوته على آخره في نهاية الممر المؤدي للشارع.

أنا الجّماهير أنا الجّماهيرْ
روس العُملاَ رايحةْ آتطير

أنا الجّماهيرِ أنا الجماهير
روس العملاَ رايحةْ آتطير

أنا الجُماهير على الجنبين
من مراكش للبحرين

يا شارونّ يا عكروت
إسمعْ صوتي من بيروت

يا عميل الأمريكان
إسمع صوتي من عمان

إكتبْ إكتبْ في الدفترْ

فليحيا تل الزُّعتر

إفتح عينك يا أعمى وإقرا
هذا دم الشُّهدا آف صبرا

وكان الرصاص يهب حوله..

والرايات تخفقُ.. مندفعاً كان.. غير عابىء بما يتساقط منها..

وظل يبتعد.. باتجاه أحد المحاور.. حيث كان الجحيم منتصبا هناك واصلاً الأرض بالسماء.

* * *

وخرجت أُمي أولاً.. أدارت وجهها.. ولم يكن ذلك فرَحًا خَجِلاً بما حدث في الداخل. وهمست: اتركوه.

وبعد ساعتين.. خرج بعينين جمرتين.

فقلت: كيف لم أتنبه إلى صدر أمي المبتل. أمي التي ذهبت وغيَّرت ثوبها المنقوع.

أُغلق البابَ بقامته وكان يشدُّ على إطاره.. خفنا.. لم يكن نفسه الذي دخل قبل ساعات. نظر إلينا ثم صرخ: ما الذي تفعلونه هنا.

أعادها ثلاث مرات.. قبل أن تأخذه أمي من يده وتقوده خارج البيت. مثل طفل.. ويغيبان عن أعيننا.

* * *

كان علينا أن نبتعد.. أن نغادرَ ظل البناية العالية.. أن نبحث عن قبو آخر.. ملجأ.. أي طعام.

أُمي حدّقتْ بنا طويلاً ثم انفجرتْ: الداعر ابن الداعرة بدو آيَّاني أكل أولادي.

وحدّقْنَا في وجوه بعضنا.. وحدّقنا في أُمنا.. وقلنا هل سنضطرُّ لأكل واحد من أخوتنا. أم سنبدأ بأمنا؟

وأعادوا إذاعة الفتوى.. رددوها.. حتى إذاعتنا رددتها.. وكان

الخبز على بعد دقائق خمس منا، كل شيء، الحياة الكاملة.. كانت على بعد خمس دقائق منا.. تقطعها الرصاصة في لحظة.

وقالت أُمي: الا يكفيه أنه حلل لحمنا لكل هذه الأسلحة.. ولهم.. حتى يدفعنا إلى أكل بعضنا على سُنَّةِ الله ورسوله.

* * *

وحين وصلنا إلى ملجأ قَبِلَنا أخيراً.. ملجأ مظلم.. كل وجوهه ضامرة.. حين غامرنا في قطع أرض مكشوفة للوصول إلى هناك.. حينَ رأتنا الدبابات ورشاشات ٥٠٠ القابعة في أعالي التلال المحيطة.. وأرسلت نيرانها.. رحنا نزحف طول الليل كي نصل إلى حائط يُخفي ظلالنا.

حدَّق فينا كل من في الملجأ.. وخيَّل إلينا عندما رأيناهم.. أننا الأسمن والأوفر صحة.. حتى دون العجوز.. العجوز التي لم تستطع الزحف.. وظلت تسير واقفة.. ففقدناها..

واكتشفنا: ليس لأننا الأسمن ينظرون إلينا هكذا.. بأعينهم الجائعة.. كان لنا رائحة ما، غريبة.. تفوحُ منا.. وحين نظرنا إلى بعضنا وجدنا فتاتَ لحم ملتصق بنا، فانشغلنا بإزالته عنا طوال الليل.

قالت أُمي: لقد رأيت القذيفة تصيبها.. رأيت العجوز تومض وتختفي.. واستعذْنا الرذاذ الحار الذي انهمر فجأة علينا ونحن نزحف.. فبدأت أبداننا ترتجف وعصفت بنا الحُمّى.

قلت: من سيأكلني من هؤلاء.. من سآكل.

وقالت أُمي فيما بعد: إنها لم تستطع النوم.. كانت تريد أن تحرسنا.. وكان للعيون أنيابها الأكثر حدَّة من الإنياب.

وانشغلنا بانتزاع فتاتِ اللحم عن ملابسنا.. وكلما ألقينا بقطعة حدَّق فيها كل من في الملجأ.. وكنا ننتظر.. من سيبدأ الهجوم، من سيكسر خوفَهُ الأزلي من الأموات ولحمهم في محاولة أخيرة للبقاء على قيد الحياة.

انحنى رجل عجوز، دفـع اللحم المختلط بالتراب بطرف ورقـة.. جَمَّعَهُ.. اتجه إلى الباب وألقاه خارجاً..

* * *

وقال لي: طُز في هيك حياة..

لقـد أحسست أنهـا أكلت يـدي الثـانيـة.. عنـدمـا قطعت نصفَ الوصايا التي لا بدَّ منها للفتاة لخداع أبيها.

كنتُ جهزتُ لها كلَّ حاجياتها. وانتظرتها أمام الباب، حتى عـادت. ناولتها الحقيبة.. أحسَّـتْ بالسُّخن فجأة. فارتبكتْ. وأحسستُ بـالعرق يتفصَّدُ تحت شعرها.. المستعار، شعرها الـذي قلتُ لها ألف مـرة: إنني لا أحبه.. وانه مزيَّف.. وان عليها أن تُلقي به بعيداً.

فقالت: لا أحد يستطيـع أن يُميِّزَ بينه وبين أي شعرٍ حقيقي.. لا أحد يعرف.

وقلت: أنا أعرف أنه مستعار..

وكانت حاولت أن تقنعني أكثر من مرة أن أضـع يداً خشبيـة أو بلاستيكية بدل يدي..

وظلت تقول: إنها سألت.. وان هناك أيدٍ لا تستطيع أن تُفَرِّقَها عن الحقيقية.

وقلت: إن ذلك قد يريحكِ حين نمشي معـا.. أمام النـاس، ولكنني لن أستطيع ضمك بها.. تفهمين.

ولم تقل لي: ان يداً واحدة تكفي.

* * *

قلتُ لها: تريدين أن نتحدث.. أم نختصر الموضوع.

فقالت: نختَصرهُ. فقط، لا أُريد العودةَ إلى أهلي الآن.

قلت: لا عليك.. سأترك البيت لك الليلة.

قالت: إلى أين؟

قلت: سأدبِّر حالي.. وحين تخرجين باكراً.. ضعي مفتاحكِ في تنكة النعناع.

وسمعتُ الباب يُطرق خَلْفِي.. وكنتُ أبتعد..

مشيتُ ليلةً كاملة.. دخلتُ أزقة طويلة.. تتقافز فيها قططٌ وجراذين كبيرة، الجراذين التي ظلت ترتع في المخيم منذ المجزرة، بعد إصابة البيطرة.

ورأيت الصباحَ لأول مرة.. منذ زمن لم أره.. وأحسست بالبالطو الثقيل يتمزق.. وانني أخرجُ للعالمِ من جديد ناصعاً كصوص يعتلي قشرةَ البيضة.

* * *

وقلت له: إن ما أعرفه تماماً.. ان صاحبتي التي مات أبوها تغيَّرت فجأة، أصبحت أكثر جرأة من أي يوم من الأيام.. وانها بكت وقالت لي: أكان لا بد أن يموت لأحس بالفرح.. لماذا لم يتركني أفرح ويظل حيّاً.

فأحببتها أكثر.. ولم يعد أحد قادراً على التفوه بكلمة ضدي في الحارة، نَمِرَةٌ حقيقيةاندفعتْ داخل صاحبتي التي لم أعد بحاجة لكتابة الرسائل إليها مفتتحاً كلامي: حبيبتي.

أصبحت أقول لها ذلك مباشرة مثلما يحدث في السينما، ولم أرتبك مثل عبد الحليم حافظ في فيلم «معبودة الجماهير» أمام شادية. وتركت لها حرية التصرف بشاربي، وصرتُ أسير معها في الشارع.. ولم تعد المسافة التي تفصلنا عن بيتهم نفس المسافة. ظلت تضيق، وعندما أصبح لي شارب شبه حقيقي. قالت: إذا حلقته لن أحبك أبداً..

وكانت قد بدأت تعود من المدرسة، إلى بيتنا.. قبل أن تعود إلى بيتها.

* * *

وقال لي: بيتها الذي طار.. مثل يدي.

قلت: وطارت بعده بشهر.

حين خفقت المـذبحـة البشـر ببعضهم.. كمـا يُخفق البيض في البرنامج الغذائي إياه. وكان يجب أن يمرَّ وقت طويـل لنعرف تمـاما أين نحن. وكنت ابحث عنها.. وأعمل على أن أمرّ من أمام بيتهـا كلما ذهبت إلى حطام بيتنا.

وحين عادت.. عادت حُبلى.. فـارتعبت.. من أن أكون أب الطفـل. ولكن.. أنت تعـرف.. لم نكن وصلنا معـا «للغميق». فهـربتُ.. وفي وسط البلـد رأيتهـا ثـانيـة .. فـركضتُ خلفهـا وحينَ وصلت إلى الإشـارات الضوئية، التي كنا فَرحين بالوقوف تحتها، لأنها كانت جـديدة.. تـوقفتْ هنـاك.. فوقفتُ خَلْفَهـا على بعد خطـوتين.. كان جنينهـا يطـل بـراسِـهِ ويغمـزني.. وبطنها يتحـرك تحت قميصـها الضيق. فهـربتُ ثانيـة. كانت امرأة كبيرة.. ببطنها.. بجنينها المتفلِّت.. وأحسستُ بجسدي يتضاءل.. وبشاربي يختفي..

* * *

وقال: إنها اختفتْ أيضـا.. وإنه لم يجد المفتاح في تنكـة النعناع. وعندما أراد أن يفتح الباب ويدخل.. لم يدخل المفتاح. فحدَّق به ليتأكـد إن كان مفتاحه نفسه. ولم يكن غيره.. حاول مرة أُخرى.. وخطـر له أنهـا لم تزل في الداخل.. وان مفتاحها هو المشكلة.. فلم يطرق البـاب.. لأنه لم يكن يريد أن يراها ثانية.. فأبتعد.

* * *

وقلتُ له: إنها عـادتْ بجديلتين.. ونهـدين غير اللـذين أعرفهمـا.. وانها تقافزتْ كطالبة.. وحملتْ الحقيبة.. واجتـازت عتبة البيت.. بيتنـا.. وأرادت أن تتنـاول الطعام.. طعـامَ الغداء.. معنـا.. وان أُمي بكتْ حين رأتهـا.. ولم تقـل لي لمـاذا بكتْ.. لكن حبيبتي لـم تكن حبيبتـي التي أعرفها.. فارتبكتُ. ولم يسألها أحد أين آبنها.

حـاولتْ أن تدور كثيرا حول كلماتها.. عنـدما اختلينـا، حاولتْ أن تشرح لي: لكنها لم تستطع.. لأنها لم تكن تفهم الـذي حدث لهـا فعلاً..

ولذا لم أفهم شيئاً.. وحين فهمتُ كلمة «اغتصاب» كان زمن طويل قد مر.. واصبح الأمر سيان.. أن أفهم أو لا أفهم لإنها تزوجت هذه المرة.. ورأيتها قرب الإشارات.. وكنتُ أعض أصابعي ندما.. وحين وصلتُ كان بطنها كبيراً كالمرّة الأولى.. لا.. أكبر بكثير.. فهربتُ ثانية.

* * *

وقال لي: إنه عاد مساء.. وأدخل المفتاح في الثقب فلم يدخل، وانه انحنى.. فوجد قطعة من الخشب في القفل. وانه ضحك من نفسه، لأنه كان العوبة في يدها.. عاد ليدور في الشوارع ثانية.. إلى أن أحس بالتعب.. فطَرَقَ باب جاره، ورجاه أن يكسر له الباب، ارتبك الجار.. ولكنّه أطاعه في النهاية.. وعندها أطل الفراغ.. لم يكن ثمة شيء قد بقيَ في البيت.. كان على البلاط.

* * *

وقلت: إنها واحدة من أسوأ الليلات.. ولو كان النومُ فيها على البلاط لكان الأمر أفضل بكثير. بدل العفونة اللزجة التي تغمر الجدران وتصعدُ باتجاه النافذة.. النافذة التي كانت تطل على أصوات النوارس وصافرات السفن.

وقال: إن موظف البريد جاءه.. ونام عنده بعد منتصف الليل، وإنه خرج في الصباح دون أن يراه.

قلت: لقد جاء عندي أيضاً.

وقلت: إنه يحيّرني... وإنه تغابى وخدعنا هناك في المطار، وإنه جاء ليكمل الخدعة هنا.. وربما يكون ما يحدث لنا كله خدعة وقال: عليك أن تصبر.

* * *

وهمسَ موظف الإستقبال وهو ينظر حول نفسه: إن امرأة اتصلت به وأوصته بنا خيراً.

وأفلتت كرة الصوف من يده، فراح يتابعها.. وهو يعتذر.. وقلت

ربما فتاة المصعد.. ولكنني تذكرتُ أنها كانت معي في الحلم.. فطردتُ الفكرة.. ثم انفجرت ضاحكاً.. فسألني الآخر: ما الذي يضحكك إلى هذا الحد.. ولم أقل له: إنني جننت. وإنني برأتُ فتاةَ المصعد..

وسأل: أية فتاة تلك التي يمكن أن تتصل.. أيْ إذا اتصل رجل بكون نِعْمِه.

وظل موظف الإستقبال يركض خلفَ كرة الصوف التي خرجت من بوابة «الكاونتر» الجانبية وراحت تتدحرج في الشارع.

وقلت: ربما قررتْ أن تتمرد، والاّ تُحْبَس بقية عمرها في كنزة يرتديها الموظف.. أو زوجته.. وانها كانت تحب، لو خُيِّرتْ.. أن تكون خيطا لطائرة ورقية.. أو أن تبقى متأرجحة بدلالٍ فوق إليَةٍ نعجةٍ حقيقية تحف بها الأكباش.

انشغلتُ بكرة الصوف.. نسيت الفتاة.. وأحسستُ أخيراً أن في الأمر إنَّ.

* * *

وقال لي: إن الأمر بالنسبة إليه كان صعبا في البداية ولكنه عندما اكتشف كم أصبح حرا، بدأ يرقص داخل الفراغ.. فراغ البيت الواسع.. وانه أغلق الشبابيك كلها.. سوى واحد. تركه يطلق الضوء في إحدى الغرف بِحُريَّةٍ وبكثافة غريبة.. وأستحم به.

وقلت: إن الأمور في مسألة الضوء تتشابه مع أمور الماء.

وعندما سألني: كيف؟

أجبت: حين تُغلِقُ كل الصنابير وتُبقي واحداً فإن كمية المياه المتدفقة منه تكون أغزر.. وهكذا يحصل مع الشبابيك.. والبيوت.

وتماديت وقلت: إن ذلك يحدث على نطاق الأوطان أيضاً.

فقال: إنك تتفلسف الآن.

فقلت: أبداً والله.. فحين يغلقونَ نوافذ بيوتنا فإن كميةَ الضوء في بيوتهم تزداد.. أليس كذلك..

فقال: منطق.

* * *

وقلت إن الضوء الشاحب في الملجأ، كان يُمَهد الطريق لمباغتتنا.. حتى اننا كنا نتطلع حولنا.. ولا نعلم متى ستبدأ الأنياب عملها فينا. وهل سنحس بذلكَ فور تحرك أحدهم.. أم بعد أن تلفحنا أنفاسه أم بعد أن تقضمنا أنيابه.. أم اننا لن نجد الفرصة لكي نحس بأننا «رحنا فيها» وهذا أفضل.

* * *

وقلت له: إن واحداً فقط كان يخيفني بصورة خاصة.. ينظر إليَّ بعينين جاحظتين.. أحس بهما تحفران كتفي.. ولم أدر، لماذا تحفران كتفي إلاّ متأخراً.. حين اقتربَ زاحفاً.. ولم تكن به قوة تتيح له أن يقف على قدميه. هذا طمأنني أكثر.. لأنني كنت أرى فيَّ قوة قادرة على دفعه وإلصاقه بالحائط.. ولم يكن هناك أي حائط، لأن البشر أخفوه تماماً بأجسادهم، وظل يزحف.. ورأيت عيني أمي تشتعلانِ خوفاً.. ثم رفع يده بصعوبة.. ولم يكن قادراً على قتل نملة.. لا أقول ذبابة أو ناموسة.. لم يكن قادراً على قتل نملة.. ومن على كتفي التقطَ شيئاً ما.. حين رأيته.. تبين لي.. تبين لنا أنه قطعة لحم صغيرة نسيتها أثناء تنظيفي لنفسي من فتات المرأة العجوز. وضعها في فمه وراح يلوكها.. كانت يابسة.. ولم تكن له تلك الأسنان القادرة على طحنها.. فزعنا.. كل من في الملجأ.. وفجأة دبَّتْ فيه قوة.. إنفجرت حنجرته وصرخ: الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.

وانطلقت الأصوات من كل صوب: الله أكبر.. الله أكبر.. من الخارج.. ومن الداخل..

المرأة المسيحية التي تدلّى صليبها من رقبتها صرختْ أيضاً: الله أكبر..

وخرج الناسُ من الملاجيء.. الأطفال.. النساء.. الشيوخ.

اشتعلَ ليلُ المخَيم بالتكبير.. توقفت القذائف وعمَّ صمتٌ مرعبٌ.. جليل.. مُبْكٍ.. وراح البشر يتجمَّعون في الشارع الرئيسي وكأنهم متفقون على ما يقومون به من زمن.

ونزل مطرٌ غزير، لم يكن الموسم موسمه.

انـدفعوا في الطـرق بـاتجـاه هـدف واحـد، عشـرات الآلاف من الأطفال والنساء..

وقالت أمي: إبق هنا.

وبقيت..

اليـوم.. أسأل وسـأبقى: قوة اليـأس تلكَ التي هبتْ فيهم أم قـوة الحياة.. ليندفعوا باتجاه البنادق؟!

* * *

وقلت للآخر: إن العجوز هي التي أنقذت حياتك ولست أنا..

فقال: لا تجنني. أصبحتَ تخلطُ الأمور بصورة عجيبة.

قلت: إن لحمهـا هو الـذي أنقذك.. لحمهـا الذي أعطـانا الـدرس الأقسى لكيلا نخافَ من اللحم، إذا ما رأيناه ملتصقا بنا.

وقلت: إن المطـر أنقذ حيـاتك أيضـاً حين آنهمر.. لأنني لم أطْـع أمي وأبقى هنـاك حيث أرادت، باعتبـاري الكبير.. الكبيـر الذي يُغـري الجنود بإطلاق النار عليه، وتدشين لحظةِ إعدام.

المطر أنقذ حياتك.. حين آنهمر ومنعَ العجـوز التي كانت تجـرّني بفتاتِ لحمها غيـر المرئي وبقـع دمها المتغلغلـة في ملابسـي.. تجـرّني لألحق بهم.. هـل كانت تـريد أن تنتحـر.. أم كانت تـريد أن تعـود إلى الحياة، بلا قذيفة مباشرة.

المطـر أغـرقني.. لامس عظمي سيـولاً.. وأخـذ العجـوز معـه.. فتوقفتُ.. توقفتُ كأنني صحوتُ.

من يدري هل كنت سأستطيع الركض فوق ذلك التلِ البشري من الأشلاء، لكي أجُرَّكَ خارجَهُ عندما سطعت شارة الحياة تلك.

وقال: لو تأخرت قليلاً.. لربما كانوا وجدوا لي يداً مناسبة.. أنا متأكد إنهم كانوا يبحثون لي عن يد..

وقلت: لكن الجرافة كانت قد بدأت تعمل.

ولم أرغب في توجيه السؤال القاطع إليه: أكنتَ تفضل أن أتركك هناك.. أم أُخرجك بيد واحدة؟ لأنني أعرف كم أصبحنا صديقين.

.. إلتفت وجدته فـوق رأسـي.. ولم أسألـه كيف استطاع الـدخول إلى الغـرفة.. قـال لي، الآخر، قـال لي: أعرف مشكلتـك.. لأنني وحدي الذي يفهمك.

وطمأنني ان القضية حُلَّت بـرمتها.. وأن الفـرصة مـواتية لتـربية شـاربي من جديد.. ولنمو يده ربما.. وكان يشدني خـارج الغرفـة.. وهو يتأفف.

: كيف يمكن أن تبول في مكان كهذا.. كيف نمت؟!

وقال: لقد وجدته.

وأوقفني أمام باب أبيض. بياض لا يُحتَمل.. نظيف إلى حد لا يوصف.. وقال: تفضل. عرفتُ أنه الحمام. كانت القطعة النحاسية المُبَسَطَة لرجل واقف مرفوع الرأس مثبتةً على الباب، وتساءلت: لماذا يكون الرجل المنقوش على أبواب الحمّامات منتصب القامة دائما.. مرفوع الجبين. كأنه يعيش لحظة مجد حقيقية.

وقلت: الأفضل أن يكون مصابا بحالة ارتخاء أو احتقان.

وكان يقول لي: إن التبول بعد زنقة متعـة لا تُوصف.

ولأنه مقطوع من شجرة آدمية ومن ظلها.. فقد قال لي النكتة

الشائعة: لقد فكرتُ أن أعلق يافطةً صغيرة في رقبته الصغيرة.. وأكتب عليها: للبول فقط.

وضحك.. وقال: ولكن من سيقرأ؟!

وسألته كيف وجدت الحمّام؟!

قال: بصعوبة.

دخل.. ودخلتُ خلفه.

وقلت: التبول متعة فعلاً. قلتها وقد بدأ إحساسي بوجود قنبلةٍ على وشك الإنفجار أسفل بطني يتلاشي ولكنني حين خرجت.. وكان بإمكاني أن أملأ صدري بالهواء.. وأن أتنفس بعمق.. نعم، في الحمّام، حيث لم تكن هناك أية رائحة كريهة.. كانت الرائحة بيضاء كالبلاط.. وأضواء النيون.. والمرايا.. وثيابي.. وشاربي الحليق..

حين خرجتُ.. ودفعتُ قدمي إلى الأمام.. لكي أخطو.. تماماً كما كنتُ أخطو منذ تعلمتُ المشي.. لم أجد أرضاً أمام الحمَّام، كانت هناك هوَّة فقط، حفرة امتصاصية كبيرة.. وكان الآخر يغوص في اللزوجة الكريهة.

وقلت: إنني ساهمت في إغراقه حين بُلت.. حين دفعت للحفرة تلك الكمية المهولة، كان يشير إليّ بشيء في يده.. يحاول إنقاذه من البلل.. في عنقه الصغير يافطة صغيرة.. ولم أعرف كيف استطاع انتزاعه من مكانه، ولماذا يُلوِّح به، هل كان يخشى عليه الغرق.

وقلت: لو كنت مكانَهُ.. فإن مشكلتي ستكونُ أصعب.. ستمتلئ الهوَّة بالماء.. ربما قبل وصول يدي إليه.. وسيموت أمامي هكذا.. مثل عصفور.. وربما لن أجده.. مثل فتاة المصعد.. ذات الصوت الناعم، الذي غطى أخبار الحرب، عبر الإذاعة، الفتاة ذات الأصابع الناعمة، التي بحثت عنه فلم تجده، لقد أمَّلَتْنا بالكثير.. فلتُصْعَق إذن تحتَ نار المفاجأة.. أو ثلجها.. ولتبحث ولتُجنّ..

وقلت: فلنجنّ نحن أيضاً..

* * *

وكنتُ أركض.. وهو يتأرجح على كتفي.. أركض.. وكان الجنود يركضون خلفنا..

ماذا لو أمسكونا. سيقولون : هذا لنا..

وسأطلب منهم أن يثبتوا كلامهم.

سيقولون: إننا قتلناه..

وسأقول: إنه حي..

وسيطلقون عليه النار.. ويقولون إنه لنا.. ها نحن قتلناه. لكنهم لم يطلقوا النار.. فقد كان هناك مراقبو اللجنة العربية العليا.......

ومبعوث الجامعة العربية.. والصليب الأحمر الدولي و.. .. كلهم جاؤوا بعد نفاذ رصاص المهاجِمين.. وكنا نركض ونعدّ أنفسنا لحصار مقبل، حيث أصبح من حق الجميع أن ينالوا حصتهم.. حصتهم كاملة من لحمنا..

* * *

وظل يشير إلي.. وقلتُ سيموت قبل أن أستطيع إخراجه.. وكان بلا صوت.. و فجأة.. لاحظتُ حوله رجالاً.. نساء وأطفالاً.. وكانوا يستغيثون.

قلت: الحمّامات منفصلة.. لكن الحفرة واحدة..

ولم يُثر عجبي، سوى وجود الأطفال.. هل أتوا من حمّام الرجال أم من حمّام النساء.. أم منهما معاً.. وكنت كفأر السفينة، الحمّام يتأرجح بين الناس المغمورين حتى أعناقهم.. ولم يكن الأطفال يبكون.. وهذا أدهشني أيضاً..

وتساءلت: ربما كنت بلا أذنين.. من يدري.. لعل هوةً.. أو هوتين هنا في رأسي أيضاً.. وربما كان الناس بلا ألسِنَةٍ.. وأن الهوة هناك فيهم أيضاً.. التفتُ إلى جانبيّ.. ولم أكن وحدي.. التفت إلى الأعلى.. كان ثمة مجموعة من البراميل.. ورجل فوقها يصيح. براميل مرسوم على كل منها جمجمة. والرجل يشيرُ إلينا أن نهرب، ولم نكن نعرف كيف نهرب وإلى أين..

إرتطمت الحمامات الطافية أخيراً بالرصيف.. فقفزتُ.. وبدأ الآخرون بتسلق قامات بعضهم والخروج.. وظل الرجل في أعلى البراميل ذات الجماجم يشير إلينا أن نهرب ونبتعد.. وأن نُحَذِّر المدينة. فزعه كان يقول ذلك. فركضنا.. وصلتُ إلى باب أحد الدكاكين التي تبيع الطبول والدفوف وأقفاص العصافير والأعواد.. امسكت بطبلة وبدأت أضربها بعنف..

ولكن الناس الذين رأوني صاروا يرقصون..

ألقيتُ الطبلة على الأرض، تهشمتْ. هززتهم وحاولتُ أن أقول شيئاً. لم يسمعوا.. تناولتُ قفصاً وبدأت أطرقه بعنفٍ أشد.. ظل صامتاً.. لم يخرج منه صوت، كانت يدي تتحرك بجنون.. دونَ أن يُحدِثَ ارتطامها بالخشب والأسلاك صوتاً.

قلت: طبول الأعراس ليست طبول الحرب.. حتى ولا طبول الهزيمة..

وقلت له: لماذا نُحب قادتنا المهزومين أحياناً.. كما نُحب قادتنا الذين كانوا ينتصرون. ولماذا نمنحهم الفرصة تلو الأخرى ليثبتوا أننا جديرون بهم.. ولا يمنحوننا فرصة واحدة حين نقع في أيديهم، بالنجاة.

قلت: نحن شعوبٌ متسامحة.

ونظرتُ خلفي.. لم أجده.. ربما كان أمامي.. ورأيت قادة يركضون.. بدشاديشهم التي أطبقوا على أطرافها بأسنانهم.. ورأيت بعضهم يُلقي بندقيته وبدلته العسكرية بعيداً. ويركض.. في يده ميكروفونه المتصل بسماعات كبيرة تتقافز خلفه متصلة بأسلاك كهربائية متشابكة. وكان الأطفال يركضون ويكبُرون.

أمسكت بصينيّة المنيوم.. .. انتزعتها من بين يدي بائع أدوات منزلية.. ولم أدرِ لِمَ لمْ يهرب أصحاب المحلات التجارية.. وبدأت أطرق بكل قوتي.. وسمعتُ الصوتَ.. أو هكذا قررتُ أن أُحس.. لكن دخاناً أبيض كانَ قد بدأ بالإنطلاق من البراميل ويقطعَ الطريق علينا.

قلت: مُتْنا.. نهرب منه.. فإذا به أمامنا!

غَمَرنا كلّنا.. وبقينا نركض.. لم نَمُتْ.

قلت: الرجل ضحكَ علينا.. حين رسَمَ على كل برميل جمجمة، وواصلت الطَّرقَ على الصينية. هل خفتُ الأمان؟

وكانت رائحة الحمّام تملأ الغرفة.. والباب يُطْرَق بقوة.

* * *

وكان الطين كافيـا لتلطيخ وجـه العالم الكبيـر كلّه.. الطين الـذي اندفعت إليه أيدي الأطفال والنساء.. وراحوا يرشقون به وجوه المهاجِمين ودباباتهم.. شاقّينَ طريقَهم عبر الأسلحة.. وهم يهتفون: بدنا نرجع لبلادنا. بلادهم المحتلة.

عندها فقط تنبه قادةُ الجنود.. فبدأوا يعيدونهم بالقوة إلى الوراء.

قال ضابط: ليس لديكم تذاكر إياب.

وأعادوهم.. وفي المساء عاد القصف.. وفي المساء رن هاتف الجنرال.. مكالمة من خارج البلاد.. وكانَ المتحدث يحاول تخفيف كلامه ليبدو طرفة: أي شو أخي.. بكفيكم.. إبقوا لنا شيئاً من لحمهم.. هل تريدونَ لهفَ حصتنا.. إبقوا لنا دورا في المنطقة.. وَلَوْ.

وحين رد الجنرال: المهمة الآن كلّها على عاتقنا . اجتازَ المتحدثُ بالهاتف الحدودَ بدباباته.. ليأخذ حصته.. وقلنا: جاءت النجدة.

وكنا نثرثر..

وقلتُ له: يقال أن الأمريكان حسبوها.. فوجدوا أن القضاء علينا بواسطة الأيدي المحلية، أقل كلفة من إرسال المارينز بكثير.. وأن المعركة تكون أخوية.. وان بإمكاننا نحن دائماً أن نمسحَها باللحية.. ونتصالح.. أي نتضامن.. وأن فرق العِمْلة.. فرقَ العملية.. يوزع بالتساوي.. ولا يكون أحد قد حَمَلَ دَمَنا.

* * *

وقال: إنك تتحدث عن دم يوزَّع بين القبائل.. لا يستطيع أهله مقاتلة الدنيا مجتمعة.

وقلت: لا قلتلي ولا قلتلّك.

وبقينا نثرثر

وتناثر باب الغرفة.. ووجدتهم فوق رأسي.. رجالاً غلاظا بملامح حادة.. وحركات عصبية.. صرخوا: أما زلتَ نائما حتى الآن!!

وكان الأفق المثبَّتُ بالنافذة رماديا.. والأضواء لم تزل مُشعّة.

وصرخوا ثانية: نائم للآن!!

حتى اعتقدت أنني تماديت في النوم.. وأن النهار انقضى.. وقبلتُ بهذا التفسير.. فلا يعقل أن يكون ما جرى جرى في ليلة واحدة فقط.

وكنتُ أرتدي ملابسي أمام عيونهم.. وخطرَ لي أن أسألهم عن موظف البريد وسائق التكسي، إلّا أن الآخر دخل وحوله عدد من الرجال مثل ما عندي، وكان يحاول تزريز قميصه الذي لبسه بصورة خاطئة.. فدخل كل زرّ في عروة أخيه.. ونظر إليَّ محاولاً أن يفهمَ شيئا.. فلم يفهم.

وقالوا: إن إقامتكم في الفندق انتهت.

وطلبوا منّا أن نتقدمهم خارج الغرفة.. الغرفة التي لم أعرف كيف دخلوها.. وأنا لم أستطع دخولها بمفتاح.

وقلنا: الحقائب.

قالوا: لا عليكم.. الحقائب والجوازات سنحضرها لكم لاحقا.

لاحت أمامنا مجموعة من السيارات السوداء.. الرسمية.. وكان أمامها عدد من الدراجات النارية.. ركبنا.. لكن السيارات لم تتحرك.. فاكتشفنا بعد لحظات أننا لم نكن الوحيدين في الفندق.. فقد هبط رجال ومعهم أشخاص مثلنا.. استطعنا أن نعرف بعضهم.

وانطلقتْ السيارات.

وفي الطريق مد رجل يده بقطعة قماش سوداء لكل منّا.. وطلب أن نُخفي عيوننا.. فأخفيناها..

وبعد نصف ساعةٍ من الصمت أو أكثر..

قلتُ للآخر: أما زلتَ هنا..

رد: وأين سأذهب يعني!!

وقلت: ان البق أكلني هذه الليلة.

فقال: وأنا

وسمعنا اصطكاك عجلات السيارة بالأرض فجأة.. توقفتْ.. وصرخ الرجل في المقعد الأمامي: بق.

وسمعنا باب السيارة يُفتح ثم يغلق بعنف.. وبعد لحظات أحسسنا بالسيارات تستدير عائدةً، بعد أن عادَ الرجل إلى مكانه.. الرجل الذي ظلَّ يهذي: بق.. أنا الذي قلت لهم.. ليست هناك ضرورة لهذه التجربة..

* * *

وكنا نصعدُ درجاتٍ.. ونحسُّ بأبواب الكترونية تُفتح.. وأبواب غرف.. وقالوا: معكم خمس دقائق فقط كي تستحموا.

ونزعوا قطعتي القماش السوداوين عن عيوننا.. فإذا بالدنيا «غيرْ شِكِلْ».

تدفق الماء غزيراً ساخناً.. وكان الباب يُطرق طَوال الوقت ولم أكن أمضيت دقيقةً حين اندفع أحدهم.. وأغلق الماء الساخن.. وكان الصابون يغطي عيني.. قادني عاريا خارج الحمّام.. وكنت أُريد أن أبول أيضاً..

تفقدني جيداً

وقال: الآن لا بق.

ودفع رجلً آخرُ الآخَر إلى الحمّام

وكانت عيناي تشتعلان بسبب رغوة الصابون. جففني الرجل.. وقال: ارتدِ ملابسَك.

* * *

وكنا نهرول فوق الأدراج.. مثل صفيحتين.. والدنيا ظلام.. وهم يقودوننا.

وسمعناهم يتحدثون مع أخرين..

دفعونا داخل العربات.. وانطلق زامور الخطر.. طارتْ العربات خلف الدراجات..

وفي الطريق سألت: أنت هنا؟!
فقال: هنا..

وقلت: لقد استحممنا وهذا جيد.. ولكن ألا يمكن أن يكون البق داخل ملابسنا..

وسمعنا اصطكاك عجلات السيارة بالشارع.. ارتجت بعنف.. وتوقفتْ. سادتْ فوضى خلفنا وانفتحت أبواق السيارات وسمعنا الباب يفتح.. ثم يُغلق بقوة..
وعادتْ السيارات

* * *

نُزِعَتْ قطعُ القماش السوداء عن أعيننا فإذا بنا في بهو هائل.. وكنا نرتدي ملابس وطنية من تلك التي يرتديها سكان البلد.. وكان المرافقون فرحين بالفكرة التي لم يفكروا بها من قبل.

وفي القاعة الكبيرة جلسنا.. وكان هناك العشرات منا.. العشرات الذين تصافحوا وفوجئوا بأنهم كلهم هناك.

وسمعنا جلبة.. التفتنا.. «دخلَ» اندفع لمصافحتنا.. إلاّ أن أحد مرافقينا مالَ على كبير مساعديه.. وهمسَ.. فهمس هذا في «أذنه».. فكفّ عن مصافحتنا.. وحدق في باطن يده وظهرها.. ثم ابتعد باتجاه الكرسي المخصص له..ومنْ هناك حيّانا بيده دون أن ينسى أحداً.. يده التي أكملت في حركتها نصف دائرة وهي تمسحُ الهواء،ثم جلس،فجلسنا.

* * *

اعتذر لنا عن الطريقة التي وصلنا بها إلى هنا.. وقال: أنتم تعرفون كم مرة حاولوا قَتْلَنا. تعرفون أيها الأخوة حجم الهجمة الموجهة ضدنا..

وكان يفركُ يديه..
.. ولكننا لم نكن ولن نكون من أُولئك الذين يقبلون العيش عبيداً.. معاذَ الله.

وكان يفرك يديه.

وقال: أُحيي فيكم الفكرَ الذي لا تستطيع أُمة أن تكون عظيمة إلاّ به.. أحييكم فردا فردا.

فأعتدلَ أعضاء الوفود فردا فردا.. ورفعوا الجباه.. وكـان ثمة فرد برشوت على جنبه.

وقال: أعرف كم هي قاسية تلك الليلة التي قضيتموها هنا.. وبعضكم قضى ليلتين وربما ثلاث.. وهي ليال إذا ما قورنت بليالي شعبنا في العهد البائد.. فإنها ستكون من ليالي الجنة.

وعاد يفرك يديه، بعد أن نسيهما على ما يبدو..

وقال: حدّقوا حولكم وتأملوا الآن ما أنتم فيه من نعيم.. إنكم الآنَ في واحد من قصور شعبنا العظيم..

وقال: غداً ستُبصرون بأم أعينكم المعجزة الكبرى التي حققناها..

وراح يفرك يديه.

وانتصب أحد المدعوين.. انتصب.. وكان ذو طلعة بهية.. قرأ قصيدةً حول الإنجاز.. ومهندسه العظيم وجلس.

وكان لما يزل يفرك يديه.. حتى حين وقفَ وحيّانا.. واختفى عابراً الباب الذي دخل منه.

واندفع مرافقونا نحونا وهم يُخرجونَ قطعَ القماش السوداء من جيوبهم ويناولوننا إياها.. ثم يقودوننا خارجَ البهو.

* * *

وجدنا أنفسنا ثانية وجها لوجه مع رجل أبيض.. واقف أمام الإنجاز الهادر بعد أن انتزعوا العصبات عن عيوننا.. وتحدث إلينا بالإنجليزية عن أهمية المشروع وكان فخوراً لأن الإنجاز عالمي بمعنى الكلمة.. وأن أُناساً من شعوب كثيرة ساهمت في تشييده.

ثم تقدَم أحد المرافقين، وقدم رجلاً مُهما.. إحتل مكان الرجل الأبيض الناطق بالإنجليزية.. فنطقَ بالعربية.

وقال: قد يكون بعضكم تساءل.. لماذا لم يرَ واحداً من أبناء هذا البلد يعمل في هذا الإنجاز.. والحقيقة ان ذلك مقصود تماما.. «لأنه» أحب أن يفاجىء شعبنا بهذه المأثرة الخالدة.. ويقدمها هدية له في الذكرى المجيدة لعهد الحريّة.

وكانت عدسات الكميرات تحفُّ بنا.

* * *

ثم أعادوا العصبات إلى أعيننا.. وفتحناها على ورق سميك في أيدينا.. لم يكن سوى شهاداتِ تقدير لدورنا الكبير في إنجاح المهرجان.

وقالوا: إن المهرجان انتهى.

ورأينا الآخرين يندفعون فوق الأدراج عائدين.. والسيارات السوداء تنتظرهم.. السيارات التي راحوا يختفون داخلها.. وكنا سمعنا عن كثيرين اختفوا هنا.

وعندما قلنا نريد تذكرةً.. تذكرتين.. لنعود..

قالوا: تستطيعان الإقامة هنا في هذا الفندق.. أنتما بالذات، إلى أيٍّ مدى تشاءان.

وقلنا: نريد تذكرتي عودة فقط.

فقالوا: ستكون التذاكر جاهزة غداً..

وفي الغد سألنا: هل التذاكر جاهزة..

فقالوا: أنتما مُصرَّانِ على السفر إذن؟

قلنا: آه.!!

فقالوا: خلاص. التذاكر ستكون جاهزة..

واقتادونا إلى مكتب للطيران.. فطلبت الموظفة الجميلة إلينا أن نجلس..

فجلسنا

وقالت: إلى أين تريدان السفر؟

فنظرنا إلى بعضنا مستغربَيْن.. وقلنا: نريد السفر للمكان الذي أتينا منه.

فابتسمت.. وتركتْ فترةَ صمتٍ باردة تمرُّ بيننا وبينها.

وقالت: مستحيل.

وقال المُرافق: تستطيعان الإقامة هنا في الفندق إلى أيِّ مدى تشاءان.

قلنا: نريدُ أن نعود من حيث أتينا فقط.

هزَّتْ الموظفة رأسها بما يفيد أننا خيبنا أملها، لأننا لم نفهما من المرة الأولى.

وقالت: الإتفاقية الدولية «بشأنكم» واضحة.. أنتم لا «تستطيعون» العودةَ إلى مكان أتيتم منه.

وقال المرافق: اسمعوا مني.. ابقوا هنا في الفندق.. فندق خمس نجوم..

وكنت سأبتسم: ما هي رتبة الفندق لو كان في الجيش؟.. لواء.. عقيد.. أم ركن..

وقلت للآخر: ان أبي كان يقول للقنصل: وطننا لا تريدونَ أن نعود إليه.. فهمنا هذه.. ولكن اسمحوا لنا أن نعود ـ على الأقل ـ للمنفى الأقرب إليه.

وقالت: سأمنحكما فرصة للتفكير..

وخيِّل إلي أنني رأيت هذا الوجه من قبل.. ولكن شيئًا ما قد تغيّر فيه..

دارت حول الطاولة: اقتربتْ مني.. وهمستْ.. أنت بالذات لي معك كلام كثير.. لأن ما فعلته معي لا يُغْتَفَر.. أين «أخفيته».. آه.. أين.

وصرختُ: أنتِ إذن!

قالت: نعم أنا

* * *

وقال لي: إن الرئيس بوش أُصيب بنوبة قلبية.

وقلت: الحمد لله اننا لم نُحب غورباتشوف منذ البداية.

وقال: إن الرجل الناطق بالإنجليزية قطع زيارته ليطمئن على الرئيس.

* * *

في المساء رأيناه على شاشة التلفزيون يقدم المفاجأة للشعب. وكان يفرك يديه..

* * *

وقلتُ لموظفة الطيران: ماذا تقصدين بقولكِ إننا لا نستطيع العودة إلى المكان الذي أتينا منه.. إن أبي عاد.

قالت: نعرف ذلك.. نعرف ذلك تماما.. ولكن هل أنت متأكد من أن الرجل الذي عاد هو أبوك الذي رحل؟

* * *

ورحنا نثرثر

* * *

وقال أبي الذي عاد من جولتـه في المخيم: في البدايـة كان ثمـة عدو واضح تنـاطحه وينـاطحك.. الآن وزِّعـوا عدوك في أشيـاء كثيرة لا تستطيع إحصاءها.

وبقينا نثرثر

خرجنا من فندق.. تجاوزنا بوابته.. ورأينا الفتاة تريد إفهام موظف الإستعلامات شيئا.. لم يكن لبيبا ليفهمَ بالإشارة.. وكان قد استعاد كرة الصوف.. وأضيء العالم فجأة بشمس رطبة..

وحاولتُ أن أتبعها وأسألها عن التذاكر.. إلّا أنها اختفت.

* * *

قلت لـه: لقد وصلتني رسـالـة.. تقـول لي فيهـا.. انهـا لم تُسقط جنيننا.. وانها الآن في الشهر الثامن..

قـالت: إنه ليس ابننـا.. إنه ابن لحظـة أجمل منّـا.. ولذا فـإن له الحق في الحياة..

وبقينا نثرثر

وعبرنا شوارعَ كثيرة.. رأيت أمامي إحدى الحوامل.. ركضت إليها.. سألتها أسئلة عن شارع أعرفه.. فقالت إنني في الشارع المطلوب.. وضحكتْ.. وضحكتُ.. وأحسستُ بزهو لأنني أقف بجانبها. ورأيتُ أخرى وكانت تائهة.. سألتني عن مكان ما.. فأشرت إليه.. فشكرتني.. ولكنني قلت لها إنني سأوصلها إليه فطريقي طريقها.. ومشيت معها طويلاً وكان الناس يحدِّقون بي ويحسدونني، وكان يسير خلفي مبتسماً.. مُفْسِحاً المجال لي كاملاً.. لأن أزهو.. وحين وصلتُ التقاطع.. حيث إشارات ضوئية عملاقة.. وقفتُ أحدق في الضوء الأحمر ساهماً.. وفجأة هبط البرتقالي وانزلق الأخضر.. فمشيتُ.. التفتُّ حولي، كانت هناك حركةٌ هائلة.. مئات النساء الحوامل اللواتي ينظرن إليَّ بزهو.. وغبتُ بينهن..

وبقينا نثرثر..

وقال لي: إنه يحبّها فعلاً.. وإنها تُحبه.. وانها «معتَّرة» أكثر منه ومني.. وان ولده الذي أطل على الدنيا لم يكن بيد واحدة، كان بيدين اثنتين!!

وكان يتحدث عن الامر كمفاجأة..

وبقينا نثرثر

وقال: لِمَ لا تكتب كلَّ هذا الكلام..

فقلت: وحدي أعرف الحقيقة كلّها.. وحدك تعرف الحقيقة كلّها.. فعن أي حقيقة منهما سأكتب.. ولدى كل واحد من هؤلاء البشر الذين يعبرون الشارع حقيقته؟

فقال: ربما يصلُح هذا الكلام كرواية.

فقلت: إن روايتي الأولى كانت ستتسبب في طلاقي.. فعندما قرأها شقيق زوجتي على أبواب مراهقتهِ الساذجة.. ركض إلى أمه وقال لها: يجب ان نُطَلِّقَ اختي منه.

فسألْتُه: لماذا؟
فقال: لو كنتِ تعرفين القراءة لفهمتِ.
وعندما أصرت أن تفهم.

قال لها: إن هناك «سِكس» في روايته.. وان أخلاقه سافلة.. وشخص كهذا قد «يلعب» على أُختي «ويعمل» إلها إشي مش مليح.. عيب يعني..

سارتْ أمه حتى باب الحوش.. أُغلقته.. فأحس بالخطر.. ولكنّه لم يستطع الإفلات من القباقيب التي ظلت تنهال على رأسه حتى تمكن أخيراً من القفز عن السور.

وبقينا نثرثر

وكان هناك من يتبعنا..
وبقينا نثرثر

وفجأة اندفعتْ دبابة خلفَنا وأطلقتْ علينا النارَ مباشرة..
وبقينا نثرثر
وقال: إن لَمْ تكتبها سأجد واحداً يكتبها..
وبقينا نثرثر..
وقال: أقطع يدي لو كنت أفهم لماذا لم نزل نثرثر.
وصمتَ لحظةً
وقال: لقد رأينا الكثير..
فقلت: نحنُ مجرد اثنين، ٢ فقط
وبقينا نثرثر
وقلت: إن أُمي حامل
فصرخ: الحجة؟
قلت: آه..
وبقينا نثرثر..

ليل ١٦ ـ ١٧/٩/٩١

إبراهيم نصر الله

- من مواليد عمّان عام 1954 من أبوين فلسطينيين اقتُلِعا من أرضهما عام 1948 ، درس في مدارس وكالة الغوث (مخيم الوحدات) ، وأكمل دراسته في معهد المعلمين التابع للوكالة .
- عمل مدرّسا لمدة عامين في المملكة العربية السعودية 76-78 .
- عمل في الصحافة الأردنية من عام 78-96 .
- يعمل الآن مسؤولا عن النشاطات الثقافية ـ دارة الفنون ـ مؤسسة عبد الحميد شومان ومستشارا ثقافيا للمؤسسة .
- صــــدر لــه
- شـــــعراً : (الطبعات الأولى)

• الخيول على مشارف المدينة ـ دار الشروق ـ عمان ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت • المطر في الداخل ـ الشروق ، المؤسسة العربية • الحوار الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق ـ الشروق • نعمان يسترد لونه ـ المؤسسة العربية • الفتى النهر والجنرال ـ الشروق • عواصف القلب ـ الشروق • حطب أخضر ـ الشروق • فضيحة الثعلب ـ الشروق • الأعمال الشعرية ـ مجلد ، المؤسسة العربية • شرفات الخريف ـ المؤسسة العربية • كتاب الموت والموتى ـ المؤسسة العربية .

- روايـــــــة : (الطبعات الأولى)
- براري الحمى ـ الشروق ، مؤسسة الأبحاث العربية 85 . عَـــو ـ الشروق 90. كتاب : الأمواج البرية ـ القدس 88 .مجرد 2 فقط ـ الشروق92 .طيور الحذر ـ دار الآداب 96 .حارس المدينة الضائعة ـ المؤسسة العربية 98 .
- كتب للأطفال : صباح الخير يا أطفال . أشياء طيبة نسميها الوطن .
- شارك في المعرض التشكيلي (كتّاب يرسمون) وأقام معرضا فوتوغرافيا في دارة الفنون ـ مؤسسة شومان عام 1995 بعنوان (مشاهد من سيرة عين)
- ترجمت براري الحمى إلى الإنجليزية ، والحوار الأخير إلى الألمانية ، ونشرت مختارات من قصائده بالإنجليزية ، الروسية ، البولندية ، التركية ، الفرنسية.
- نال سبع جوائز عن أعماله الشعرية والروائية ، من بينها :

  جائزة عرار الأدبية عن أعماله الشعرية 1991

  جائزة تيسير سبول عن أعماله الروائية 1994

  جائزة سلطان العويس للشعر العربي 1997

مجرد 2 فقط

• يعطي إبراهيم نصرالله نصا لا يتحدث عن الحرية بل يعيش الحرية في علاقته الفنية، ولعل الحرية الداخلية التي ينبني عليها نصه الروائي هي التي تجعل منه صورة لأدب الإنسان المقموع، وهو أدب جديد يرى الإنسان في صفاته كلها. لقد ذهب إبراهيم بنصه إلى أقاليم جديدة، قوامها الإنسان المغترب والمأساة الفلسطينية المرفوعة إلى مقام مأساة إنسانية شاملة، ويمكن القول: تشكل كتابة إبراهيم نصرالله الروائية النموذج الأكثر جدية وموهبة في تجديد وتطوير الكتابة الفلسطينية منذ محاولات غسان كنفاني في (رجال في الشمس) ومأثرة إميل حبيبي في نصه الكبير (المتشائل)...

فيصل درّاج

• في (مجرد 2 فقط) يقودنا الروائي إلى عمق المأساة الفلسطينية بطريقة فريدة غير متوقعة، فيلتقط المشهد البانورامي العريض لمأساة شعبه على امتداد أكثر من نصف قرن عبر تقنية بصرية سمعية حسية استطاعت أن تمنح المرئيات المألوفة براءة جديدة وولادة متجددة عمّقتْ من كثافة شعرية القص وحررته من الرقابة والآلية، مما جعل هذه الشعرية تسهم في إنتاج المعرفة، وفي أنتاج الحقيقة أيضا، ولكن على مستوى الإيماء والفن واللامباشرة .. عن طريق زج القارىء في عملية القراءة والتأويل وإنتاج الدلالة والحقيقة معا...

فاضل تامر

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
هاتف/فاكس: ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١